الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي– جيجل –

كلية الأدب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة :

المصطلح التّداوليّ في التراث العربي
البيان و التبيين للجاحظ ـ أنموذجا ـ

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص : مصطلحية

من إعداد الطالبة :

أمال بوشريط

فيروز بن شمخ

إشراف الأستاذ:

عباس حشاني

لجنة المناقشة

الأستاذ: عبد المالك مسعودان	رئيسا.
الأستاذ: عباس حشاني	مشرفا ومقررا.
الأستاذ: بشير أعبيد	عضوا مناقشا.

السنة الدراسية :2017/2016

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و عرفان

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ النمل:40.

إلى المشرف الفاضل حشاني عباس الذي تعب و أرهق معنا، فمنه السماح و منا الشكر و العرفان و التقدير.

إلى الصديقات و الزملاء و الأساتذة و كل الأشخاص الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل و إخراجه إلى النور، سواء من قريب أو بعيد، فلهم تحية شكر و عرفان.

إلى كل هؤلاء شكر خاص و احترام كبير و عرفان جميل و دعوة صبر و تحد و نضال للمضي قدما و السير في طريق العلم، طريق النجاح، طريق العلم و المعرفة و البحث.

الحمد لله كثيرا و الشكر لله جزيلا، الذي كتب لنا الحياة حتى ننجز هذا العمل.

إهـــــداء

إلى من رباني ولم يبخل عليّ في طلبي للعلم

أبي العزيز الغالي

إلى من كانت دعواها صدى في أذني ونبراسا في حياتي

أمي العزيزة الغالية

إلى من كانوا سندا لي

إلى إخوتي وأخواتي

إلى أحبتي .... بلا استثناء.

مقدمة

مقدمة:

لقد تطورت الدّراسات اللّسانية، فلم يَعد التّياران البنيوي والتّوليدي هما الوحيدان اللّذان يسبحان في بحر هذه الدّراسات، حيث ولَّدت المفاهيم اللّغوية تيارات منها "التّداولية" التي تعتبر آخر مولود للّسانيات و هي تقوم بدراسة لغة الأفراد، وأحاديثهم اليومية، فهي تختص بالجانب اللّغوي، مع أنّها عِلم جديد إلاّ أنّه يغوص في جذور الدّراسات التراثية العربية، وسنحاول في بحثنا هذا أن نبرز تجلياته في هذه الدّراسات.

ومن بين الكتب التي تجلّت فيها التّداولية في التراث العربي،وقع إختيارنا على كتاب "**البيان والتبيين**"،الذي يُعدّ من أبرز الكتب التراثية،وقد كان اختيارنا لهذا الموضوع نتيجة أسباب منها:

- أنّه علم جديد حديث النّشأة، ولم يصلنا عنه القدر الكافي من المعلومات، فكانت رغبتنا في معرفة هذا العلم و أهميته.

-أما السّبب الثاني، فهو عدم تطرق الباحثين بصفة كاملة للخوض في غمار هذا العلم و أهميته.

- أما السّبب الثالث وهو أهمها، فهو محاولة معرفة ما إذا كان لهذا العلم جذور في التراث العربي، أم أنّه حديث الولادة، مع محاولة معرفة فيما يتجلى المصطلح التداولي في المدونة التراثية العربية.

وسنحاول دراسة هذا العلم الحديث من خلال ما جاء به "الجاحظ"، الذي نجد في كتابه قضايا تداولية وبخاصة أبرز المفاهيم التي تميزت بها التّداولية في الدَّرس اللّغوي الحديث، و عليه ما هي التّداولية؟ وما هي أبرز مفاهيمها؟، كيف تجلت في كتاب"البيان و التبيين"؟، وللإجابة عن هذه الأسئلة اتبعنا الخطة الأتية:

مقدمة:

أمّا الفصل الأول:فقد جعلناه للحديث عن ظروف ظهور هذا العلم، ونشأته في الدّرس اللّغوي المعاصر من خلال تعريفنا له، وذكر ملامح نشأته، وإبراز أهم مفاهيمه و العلاقة التي تربطه بالعلوم الأخرى.

أمّا الفصل الثاني:فقد تطرقنا فيه لإبراز تجليات هذا العلم في كتاب "البيان و التبيين"، وذلك بعد أن قمنا بإعطاء تعريف موجز عن "الجاحظ" و كتابه.

أمّا الخاتمة:فكانت استنباط لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

وهذا كله أوردناه تحت عنوان:***"المصطلح التّداولي في التراث العربي"البيان و التبيين"للجاحظ - أنموذجا-"***

و لما كان المنهج المتبع في الدّراسة بمثابة الطريق و الدّليل في الرحلة، فقد اعتمدنا على المنهج "الوصفي"، وذلك برصد ما جاء في "البيان والتبيين" من مصطلحات تداولية، ثم وصفها وتحليلها، مع مقارنتها بما جاء به المحدثون.

وللوصول إلى كل هذا عمدنا إلى البحث عن المادة العلمية ذات الصّلة بالموضوع، بالرغم من الصّعوبات التي واجهتنا في الحصول على أكثر المراجع وأهمها ، و رغم هذه الصّعوبات إلاّ أنّنا و بفضل الله تعالى، وجهدنا تمكنا من الاستعانة ببعض المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع، ونذكر أهمها:

"لسان العرب"**ابن منظور**، "التعريفات"**و الشريف الجرجاني**،"مقاييس اللغة"**و ابن فارس** ،إضافة إلى: "التّداولية عند علماء العرب،دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي"**مسعود صحراوي**"،وكذا كتاب "آفاق جديدة في الدّرس اللّغوي المعاصر"**محمود أحمد نحلة**،و كتاب "في

اللّسـانيات التّداوليـة مـع محاولـة تأصـيليّة في الـدّرس العـربي القـديم"**خليفـة بوجـادي**، إضـافة إلى هـذه المراجع،كتـاب "التداولية"ترجمة سعيد علـوش "**فرنسـوا أرمينيكـو**"، وغيرهـا مـن الكتـب.و مـن الدّراسـات السّابقة التي لها صلة بهذا الموضوع: أطروحة دكتوراه بعنوان:الحجاج في "البيان و التبيين" **لليلى جغام**.

وفي هذا العمل واجهتنا بعض الصّعوبات، وقد تمكنا من تجاوزها بالصّبر الطويل، وسعة البال ومنها:ندرة الكتب التي تخدم هذا الموضوع، الاكتظاظ في قاعات البحث، وضيق الوقت، لكن كل هذا لم يعرقل عملنا، ولم ينقص من عزيمتنا، بل زادنا إصرارًا و تحديا، و ما أحلى أن يتعب الإنسان في تحقيق أهدافه.

وفي الأخير نتقدم بالشّكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف "***حشاني عباس***"، الذي لم يبخل علينا بنصائحه و توجيهاته القيمة، وكل من ساعدنا ولو بكلمة طيبة.

وأخيرًا نرجوا من الله تبارك و تعالى أن نكون قد وُفقنا في بحثنا هذا.

مدخل

مدخل:

تُعدّ اللّغة الطبيعية أحد أنظمة العلامات التي يستعملها الإنسان لتجسيد قصده وتحقيق هدفه؛ ورغبة في الإفهام والفهم بين أطرافه من جانب وتحقيق ما يصبوا إليه، هو من جانب آخر بيد أنّ أهميتها تتجاوز ذلك إلى أنّها هي الأداة الأهم، فلا يقتصر دورها على وظيفة نقل الخبر، أو وصف الواقع بل يُنجز الإنسان بها أعمالا يستطيع إنجازها من دونها، ولما أنّ اللّغة هي الشِفرة الرّمزية المهيمنة في العملية التّواصلية، فإنّه قد يكون من المفيد أن ندرس العمليات التّواصلية، من وجهة نظر تداولية[1] .كما أنّ اللّغة البشرية عنوان لكل الأنظمة الدّلالية الأخرى غير اللّغوية التي تضمن التّواصل في ظروف معينة، نحو الرموز والإشارات، الاصطلاحات المختلفة، ذلك أنّ هذه الأنظمة لا تؤدي إلاّ بتأويلها إلى اللّغة، وقد أشار "خليفة بوجادي" إلى أنّ اللّغة هي نظام التّواصل الوحيد الذي يؤدي وظيفة من زوايتين مختلفتين الزاوية الإشارية (**السّيميائية**) والزاوية الدّلالية، وبذلك حقت لها هذه الهيمنة على الأنظمة غير اللّغوية الأخرى التي تؤدي الوظيفة نفسها (**التعبير والإبلاغ**) من زاوية واحدة، هي الإشارية، ولا تَأتّى لها الدّلالية إلاّ بالتأويل إلى اللّغة، وتكمن ميزة اللّغة الكبرى في أنّها تشمل دلالة العلامات المفردة ودلالة القول في آن واحد، وتستند الاشارية إلى الظواهر الصّورية المتوافرة في البينية، أمّا الدّلالية فتقوم على الدّلالات التي تحققها هذه البينية وتؤديها، ولم تخرج دراسات اللّسانين حديثا مند القرن التاسع عن هذين الصفتين (**الإشارية والدلالية**)، وتلخص في اتجاهين:

الأول: نظريات لسانية صورية، تهتم بدراسة الجانب الأول في اللّغة متضافرا مع الجانب الثاني، وقد اهتمت بدراسة اللّغة الطبيعية وعدتها أنساقا مجردة، يمكن وصفها بمعزل عن وظيفتها التّواصلية.

أمّا الاتجاه الثاني: نظريات لسانية وظيفية، وتهتم بظروف الاستعمال وتقوم على مبدأ أنّ اللّغات الطبيعية بنيات تحدد خصائصها ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسية وهي وظيفة التّواصل، فهي تجعل ظروف الاستعمال مسئولة على تحديد طبيعة البنية وتشكيلها ومن نماذج هذه النظريات التّداوليّة.[2]

---

[1] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد،بنغازي،ليبيا ط1، 2004،ص:25.

[2] ينظر:خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية،مع محاولة تأصيله في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع،العلمة،ط1،2009،ص:48،47.

وتعــود كلمـــة "تداوليـــة" في أصـــلها الأجنـــبي (Pragmatique) إلى الكلمـــة اللاتينيـــة (Pragmaticus) والتي يعود استعمالها إلى عام 1440.

ومبناها على الجدر(Pragma) ومعناه الفعل (Action)، ثم صارت الكلمة بفعل اللاّحقة تطبق على كل ماله نسبة إلى الفعل أو التحقق العلمي، أمّا في الفرنسية فقبل أن تدخل إلى مجال الدراسات الفلسفية والأدبية، فإنّها استعملت في المجال القانوني وتحديدا في عبارة (Sanction pragmatique) وتعني الرسوم أو المنشور الذي يهدف إلى تسوية قضية هامة، ثم كان توظيفها في مجال العلوم البحثة، لتدل على كل بحث، أو اكتشاف له صفة إمكانية التطبيق العلمي، وفي وقت متأخر تسللت الكلمة إلى اللّغة المستعملة.[(1)]

ويرجع مفهوم برجماتية إلى "موريس" إذا يفرق بين قواعد نحوية وبين قواعد دلالية، وقواعد براغماتية، وفيما يتعلق بالقواعد البرجماتية التي تتجاوز حسب رأي كثير من علماء اللّغة بين علم حدود اللّغة.[(2)]

لقــد تطــور هــدا العلـم كثـيرا بفضــل الجهــود الــتي قــام بهــا الســانيون، وفلاســفة اللّغــة أمريكيــون مثل "أوستن"(Austin)، و"سيرل"(Searl)، و"غرايس"(Grace)، وقد كان بعض اللّسانيين يُعدون المعنى عن موضوع في دراستهم، بسبب الطبيعة المعقدة التي تتداخل فيها مجالات بحثية مختلفة كالفلسفة والمنطق، وعلم النّفس وعلم الاجتماع، وغيرها.[(3)]

ولقد عَمدَ الباحثون إلى هدا المنهج، ليمدّهم برؤى متعددة، نتيجة لقصور الدّراسات الشكلية، وإهمالها لمقارنة اللّغة في تجليها الحقيقي؛ أي في الاستعمال التّواصليّ بين النّاس ولذلك يرى "ليفنسون" (Levinson) أنّ الأساس الأوّل في نشوء المنهج التّداوليّ كان بمثابة ردة فعل على معالجة "تشوميسكي"(Chomsky) للّغة بوصفها شيئا جديدا، أو قَصرها على كونها قدرة ذهنية بحثية، ثم استعرض عددا من الدوافع العامة التي كانت وراء تطور المنهج التّداولي، إداكان منها ما يتعلق بالتراكيب، وتحديد المراجع، ومنها ما يتعلق بدلالة الخطاب في السّياق،والتعامل الاجتماعي بين طرفي الخطاب.[(4)]

---

(1) ينظر:نواري سعودي أبو زيد، في التداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع،الجزائر،ط1، 2009،ص:18.

(2) ينظر:رتسيسلاف وأورزنيال، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص،تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر،ص:86.

(3) ينظر:محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي،ليبيا، ط1، ص: 18.

(4) ينظر:عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب، ص: 21.

وتَعني "التّداوليّة" في الاصطلاح اللّساني ذلك الاهتمام المنصب على مستوى لساني خاص، يهتم بدراسة اللّغة في علاقتها بالسّياق المرجعي لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التّواصليّة. وبعبارة أخرى فإنّ التّداوليّة تركز اهتمامها على مجموع الضوابط والمبادئ التي تحكم عملية تأويل الرموز، والإشارات اللّغوية في إطار جهاز تلك الدّلائل لا في حرفياتها.[1]

أمّا دواعي ظهور هذا التوجه في البحث فهي عديدة، أهمها ثورة العديد من اللّغويين ضد المناهج الشّكلية التي هيمنت على الدّراسات اللّغوية في كل من أمريكا وأوروبا على امتداد النّصف الأول من القرن العشرين، وقد نشأت التّداوليّة كرد فعل على التوجهات البنيوية فيما أفرزته من تصورات صورية، مبالغ فيها خاصة عن اللّساني الأمريكي "تشومسكي" وأتباعه، وكذلك الغُلو في الاعتماد على وصف الظّواهر اللّغوية عند التّقابل المشهور الذي وصفه "دي سوسير" (De Saussure)بين اللّغة والكلام، حيث أبعد الكلام الذي يمثل الاستعمال للّغة ونظامها، وقد توجه اهتمام الدّارسين إلى العناية بكل هده القضايا المتعلقة بالكيفية التي تستعمل بها اللّغة، بالكيفية التي تتحقق بها اللّغة بالفعل عند الاستعمال، عند التخاطب وتتدرّج هذه القضايا كلها في إطار تيار من الدّراسات والنّظريات تسمى عند أهل الاختصاص بالتّداوليّة، والتي تعني بالكيفية التي بها تستعمل اللّغة عند الحديث أو في الحديث.[2]

وقد سبق "لموريس" في تمييزه الثلاثي المشهور بين حقول علم العلامات (النّحو، والدّلالة والتّخاطب) أنّ ذكر أنّ علم النحو يدرس العلاقات بين العلامات اللّغوية، وعلم الدّلالة يدرس علاقتها بالأشياء، والتّخاطب يدرس علاقة العلامات بمفسريها، ويعود هذا التصنيف الثلاثي إلى "بيرس" (Pierce)،وإذا كان "موريس" (Morris)هو أوّل من رسمه بوضوح.[3]

إنّ التّداوليّة تنطلق من فكرة جريان الكلام على الألسن؛أي من التّلفظ ذاته كعملية خاصة بالفرد، والتي تتجلى في ممارسة اللّغة إلى هدف إيصال الرسالة، أو الخطاب إلى المخاطب، والتأثير عليه ضمن عنصر التفاعليّة.

---

(1) ينظر:نوازي سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي والإجراء، ص:18،19.

(2) ينظر:محمد الاخضر صحبى، اللسانيات التداولية وأثرها في تعليمية اللغات منتدى الأستاذة، دورية أكاديمية محكمة تصدر عن المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة الجزائر العدد: 3، أفريل 2007،ص:40، 43.

(3) ينظر:محمد محمد يونس، مدخل إلى اللسانيات، ص: 18،19.

فالتّلفظ هو أساس التّداوليّة في الشّكل الظّاهري، إذ يرون الأولى لا تُحدد الثانية كعملية، وكلتا العمليتين تخضعان إلى عامل السّياق ،يحتاج المتكلم في كل عملية تواصليّة إلى مستّمع يتوخى الحذر في إدراك العلامة اللّغوية والعلامة غير اللّغوية، فحينما يكون كل من المتكلم والسّامع في مستوى الفهم والإفهام، ينبغي نشوء علاقة تبادلية بين قطبي التواصل.(1)

إنّ المتتبّع للنّظريات اللّسانية المعاصرة يرى أنّها تتجه اتجاهين، أحدهما يعني دراسة النّظام اللّغوي، وعلاقة عناصره ببعضهما البعض، دراسة شكلية معزولة عن السّياق الاجتماعي، والثقافي التي تستخدم اللّغة فيه، ويتميز هذا الاتجاه لعنايته بشكل أكثر من عنايته بالمعنى، ويُعدّ المعنى المقامي خارج نطاق اهتمامه. وهو يُعنى بالتركيب أكثر من عنايته بالسّياق. والاتجاه الثاني يُعنى دراسة الاستخدام اللّغوي، والضوابط التي تحكمه ودر المقام أو السّياق غير اللّغوي في التّواصل الإنساني، ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بكل من المتكلم والسّامع والعلاقة بينهما، كما يهتم بقدرة السّامع على الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابة لها، وأبرز نظريات هذا الاتجاه نجد التّداوليّة.(2)

ومن هنا فقد ظل اللّسانيون يرفضون الاقتصار على دراسة الجمل اللّغوية على نحو تجريدي بمعزل عن السّياقات التي تستخدم فيها.(3)

ولاختصاص التّداوليّة دراسة مقاصد المتكلم، جعلها بعضهم تشرح وضعية التّواصل وسياقه، وتفتح أبواب دراسة ما لم يقل، ودراسة الضّمني في الحديث.(4)

وللتّداوليّة مهام كبرى، حيث تقوم بدراسة استعمال اللّغة التي لا تدرس البنية اللّغوية ذاتها، ولكن تدرس اللّغة عند استعمالها في الطّبقات المقامية المختلفة؛ أي باعتبارها كلاما محددا، صادر على متكلم محدد، وموجها إلى مخاطب محدد، وبلفظ محدد، في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرض تواصلي محدد. كما تشرح التّداوليّة كيفية جريان العمليات الاستدلاليّة في معالجة الملّفوظات، ومن مهامها أيضا بيان أسباب أفضلية التواصل غير

(1) ينظر:زهية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة للنشر والتوزيع، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو،الجزائر، ص: 118،119.

(2) ينظر:محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية،مصر،دط، 2002، ص:57، 58.

(3) ينظر:محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، ص:15.

(4) ينظر:خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص:71.

المباشر، كما تقوم بشرح أسباب فشل المعالجة اللّسانية البنيوية الصرفة في معالجة الملّفوضات ،فالتّداوليّة تقوم بإزالة الغموض عن عناصر التّواصل اللّغوي، وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملّفوظات، وتستمد التّداوليّة من رافدين الرافد المعرفي، كما تقدمه بعض المباحث في علم النّفس المعرفي، والرافد التّواصليّ، من أغراض المتكلمين واهتماماتهم، ورغباتهم.[1]

ومما لاشك فيه أنّ للتّداولية أهمية، وتتضح أهميتها من حيث أنّها مشروع شاسع في اللّسانيات النّصية، تهتم بالخطاب والمناحي النّصية فيه، نحو المحادثة والمحاججة والتضمين ...إلخ.

ولدراسة التّواصل بشكل عام، بدءا من ظهور إنتاج الملّفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد، إلى ما يمكن أن تنشئه من تأثيرات في السّامع وعناصر السّياق.

وهي من هنا في إمكانها الإجابة عن الكثير من الأسئلة « التي لم تجب عنها مجموع النّظريات اللّسانية السّابقة. لما عرضته من مفهوم أوسع للتّواصل والتفاعل وشروط الأداء، ولا ينبغي مقابلة التّداوليّة لمجال محدد لأنّ نشأتها غير المستقرة جعلت منها تداوليات الإقناع لذى البلاغيين،وغيرها في المراحل الأولى من السبعينات قُصر البحث في التّداوليّة على ما يعرف بنظرية أفعال الكلام، ثم بدأ الاهتمام يتمحور بالدرجة الأولى على الدّراسات العمليّة في تحليل المحادثة التي قام بها "غرايس" في سنة 1975، ما يسميه بأصول المحادثة.» [2] وفي سنة 1974 أسهم "هانسون"(Hendon) في تطوير التّداوليّة وهو أول من حاول وضع التوحيد النّسقي لها لتمييزه ثلاث درجات، والعلاقة بكل درجة يعتمد على اعتبار مظهر من مظاهر السّياق.

وجعل لتداوليّة ثلاث درجات، فتداوليّة الدرجة الأولى: هي دراسة الرموز الإشارية؛ أي التعابير المبهمة حتمًا من ظروف الوجودي والإجمالي هو المخاطبون ومحددات الفضاء والزمن، وتندرج ضمن هذه التّداوليّة أطروحة "بول كوشي"(Paul Kochi)، ومعالجة الرموز الإشارية عند "بارهييل" (Parheil)والمحاولة الاختزالية "لروسل"(Russell)، أمّا تداولية الدرجة الثانية: فهي دراسة طريقة تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها في الحالات الهامة؛ إذ على القضية المعبر عنها تتميز عن الدّلالة الحرفية للجملة وسياقها هو سياق بالمعنى الواسع.

---

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت،ط1،2005، ص:26، 27، 28.

[2] محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص: 20.

وفيما يخص تداولية الدرجة الثالثة: فهي نظرية أفعال اللّغة، ويتعلق الأمر بمعرفة ما تم من خلال استعمال بعض الأشكال اللّسانية، فأفعال اللّغة مسجلة لسانيا.(1)

ومن أهم ما تميز به الدّرس التّداولي تحديده لما يعرف بالوظيفة التّداوليّة للّغة، حيث تجاوز فكرة الوظيفة الوحيدة للّغة (التّواصل) التي هيمنت زمنا طويلا إلى تعدد الوظائف، وأهمها أنّ اللّغة ذات وظيفة تأثيرية في السّلوك الإنساني وتنبي عليها تغيرات في المواقف والآراء.(2)

فالوظائف اللّغوية تقوم على أساس التّواصل، كما أنّ اللّغة تكمن في التّأثير في السّلوك الإنساني.

وهكذا فإنّ التّداوليّة ذات أهمية كبرى جعلتها هذه الأهمية تتطور، وتفتح أمامها مجالات عديدة، كما جعلتها تتنوع وتتعدد، وأصبحت نظرية عامة للنشاط الإنساني، حيث اهتمت بالخطاب وبدراسة التّواصل وحددت مقاصد المتكلم فيه.

فالتّداوليّة من هذا المنطلق تدرس اللّغة في الاستعمال ، كما تدرس مقاصد المتكلم، وينصب اهتماما على أطراف العمليّة التّواصليّة.

(1) بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة،مكتبة الآداب للطباع والنشر والتوزيع،القاهرة،دط، 2004، ص:189،188.

(2) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 117، 118.

الفصل الأول:مفهوم التداولية وأصولها

- المبحث الأول: المصطلح والتداولية- الماهية-

- المبحث الثاني: ملامح التداولية

- المبحث الثالث: التداولية حديثا

المبحث الأول: المصطلح والتداولية

1- المصطلح:

- تعريف المصطلح "Terme":

تناولت البحوث والدّراسات المعاصرة قضية المصطلح ،وأهميته بالنسبة إلى اللّغات التي تسعى لامتلاك المعارف والتقنيات، ويُعدّ المصطلح أحد أهم وسائلها لخوض التجربة العلمية، ويستخدم المصطلح مجالات عديدة ومتنوعة؛ إذ لكل علم مصطلحاته الخاصة به، ولا يخرج تعريفها عن حدوده المتعارف عليها، فما هو تعريف المصطلح ؟.

أ- المصطلح لغة:

إنّ المعاجم اللّغوية العربية لم تحدد معان محددة "للمصطلح"، فقد اكتفت فقط بذكر المادة اللّغوية له، ولفظ"المصطلح" في اللّغة العربية مشتق من الفعل الثلاثي (صلح)، وجاء في (مقاييس اللّغة) أنّ: «الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد...»[1]

كما أورد "ابن منظور" تعريفا آخر"للمصطلح"في معجمه حيث قال: «الصلاح: ضد الفساد [...] والصلح: السّلم، وقد اصطلحوا وصالحو واصّلحوا وتصالحوا وأصّالحوا.» [2]

من خلال هذا الشرح، نرى أن ّهذه اللّفظة تحمل معنى التّلاقي بعد الخصومة أو المقاطعة، والاتفاق أيضا وكل ما هو نقيض الفساد.

---

[1] أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، 1979، ص: 303.

[2] ابن منظور أبو الفضل، لسان العرب،مادة(صلح)،ج1، دار صادر،بيروت، ط1، 1997، ص: 60.

ب- اصطلاحا:

يُعدّ"المصطلح"هوية كل العلوم، وقد حمل في حركته وصيرورته الكثير من التعاريف، والتي تصير في معظمها إلى نقطة واحدة وهي: الاتفاق.

فقد عرّف "الشريف الجرجاني" "مجال المصطلح" بقوله : «الاصطلاح عبارة عن اتفاق القوم على تسمية ءيشلا باسمٍ ما لينتقل عن موضعه الأول [...] وإخراج اللّفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما [...] وقيل الاصطلاح إخراج الشيء من معنى لغوي إلى آخر لبيان المراد، وقيل الاصطلاح: لفظ معين بين قوم معينين.» [1]

ولقد عرف"المصطلح" في العصر الحديث دقة أكبر في تحديد مفهومه، ومن بين التعريفات التي أعطيت له نذكر على سبيل المثال ما قدمه "عبد السلام المسدي" من خلال (قاموس اللّسانيات)، وجاء فيه: «يتسنى أن نعرِّف المصطلح علاميّا بأنّه شاهد على شاهد غائب، ولعلّ هذه الحقيقة هي التي تعلّل بصفة جوهرية صعوبة الخطاب اللّساني، من حيث هو تعبير علمي يتسلط فيه العامل اللّغوي على داله، ليؤدّي ثمرة العقل العاقل للمادة اللّغوية.»[2]

أمّا التعريف الذي اتفق حوله المختصون، فهو الذي أطلقه الأوروبيون عليه؛ إذ يعتبر أفضل تعريف أعطي"للمصطلح" وهو: «الكلمة الاصطلاحية، أو العبارة الاصطلاحية مفهوم مفرد أو عبارة مركبة ،استقر معناها أو بالأحرى استخدامها وحُدّد في وضوح، هو تعبير ضيق في دلالته المتخصصة، وواضح إلى أقصى درجة ممكنة

(1) علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق صديق المنشاوي، دار الفضيلة،القاهرة، دط، دت، ص: 27.

(2) عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، عربي-فرنسي،فرنسي-عربي، مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، 1984، ص: 13.

وله ما يقابله في اللّغات الأخرى، ويرد دائما في سياق النظام الخاص بمصطلحات فرع محدد،ليتحقق بذلك وضوحه الضروري.» (1)

هذا التعريف قدم تحديد المجال المفهومي لأي"مصطلح"، وذلك بتضييق دلالته للتمييز بين كل مجال من المجالات التي يستعمل فيها، و"المصطلح"طبع في كل علم جديد، والتّداولية من العلوم الجديدة، فما هيالتّداولية؟ وما هي مصطلحاتها؟.

2–التّداولية

أ– لغة:

التّداولية مصطلح ينبع من عدة مصادر،« وقد ذكر العلماء أن مصطلح التّداولية (Pragmatique) يرجع في الدراسات الغربية إلى الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) المبنية على الجذر (Pragma) ويعني العمل أو الفعل (Action).» (2)

أمّا في أصله العربي فيعود إلى الجذر اللّغوي (دَوَلَ)،فقد ورد في معجم (أساس البلاغة) : "دَوَلَ" «دَالت له الدولة ودَالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليه [...] وأُديل المؤمنون على المشركين يوم بدر وأُديل المشركون على المسلمين يوم أُحد [...] والله يُداول الأيام بين الناس مرة لهم [...] وتداولوا الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه، يراوح بيْنهما.» (3)

(1) محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة، القاهرة، دط،2003،ص: 11، 12.

(2) نواري مسعودي، أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراءات، ص: 18.

(3) أبو القاسم محمود الزمخشري، أساس البلاغة،ج1 ،دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1966، ص: 288.

وجاء في (لسان العرب) : «تَدَاوَلنَا الأمْر أخذِنَا بالدَوَل، وقالوا دَوليك أي مُداوَلة على الأمر [...] ودالَت الأيام أي دَارَت، والله بين الناس وتداولية الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة [...]وتداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاوَرناه فعمل هذا مرة وهذا مرة.» (1)

فمدار اللّفظ"دَول"« هو الانتقال والتحول، مع وجود أكثر من طرف في هذه العملية، وتلك حال اللّغة متحولة من حال لذى المتكلم إلى حال لدى السامع، ومتناقلة بين الناس، يتداولونها بينهم، ولذلك كان المصطلح "تداولية" أكثر ثبوتا لهذه الدلالة من المصطلحات الأخرى الذّرائعية النّفعية السّياقية. » (2)

وفي معرض هذا الحديث يقول "طه عبد الرحمن": «تداول النّاس كذا بينهم، يفيد معنى تناقله النّاس وأداروه فيما بينهم، ومن المعروف أيضا أنّ مفهوم النقل ومفهوم الدوران مستعملان في نطاق اللّغة الملّفوظة، كما يقال: نقل الشيء عن موضعه أي حركة منه، ويقال: دار على الألسن بمعنى جرى عليها [...] فالنّقل والدّوران يدلان في استخدامهما اللّغوي على معنى التّواصل، وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين [...] فيكون التّداول جامعًا بين اثنين هما: التّواصل والتّفاعل، فمقتضى التّداول إذن أن يكون القول موصولا بالفعل.» (3)

ولعل هذه المعاني المعجمية، هي التي جعلته يضع مصطلح التّداوليّات مقابلا للّفظ الأجنبي (Pragmatique)، حيث يقول:« وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التّداوليّات مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقًا)، لأنّه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيين الاستعمال والتفاعل معا، ولقي منذ ذلك

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (دول)، المجلد 11، ص: 252، 253.

(2) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 148.

(3) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، ط3، ص: 244.

الحين قبولا لدى الدّارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم.»[1] فقد أراد الباحث أن تكون له دلالته الاصطلاحية موصولة العرى بالدّلالة اللّغوية.

حاصل النّظر فيما مضى، أنّ المعاني التي يسبح فيها الجذر العربي (دول)، لا تخرج عن إطار التّحول الذي يعد قوام التفاعل والتّواصل.

ب- اصطلاحا:

تدرس التّداولية المستعمل من الكلام إذ ، تراعي كل ما يحيط بها كالمتكلم، والمخاطب، ومكان وزمان التخاطب، والحاضرين أثناء الخطاب، وعلاقة المتكلم بالمخاطب، والمستوى الثقافي لهما، كي تتضح مقاصد المتكلم، والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب، لذلك عدها "رودلف كارناب" (R.Carnap)« قاعدة اللّسانيات فهي قادرة على حل الكثير من القضايا اللغوية التي عجزت عن حلها المناهج السابقة. »[2]

وتتعدد مصادر التّداولية، فهي ملتقى لمصادر مختلفة يصعب حصرها، لكل مفهوم من مفاهيمها حقل معرفي انبثق منه، فالأفعال الكلامية ولدت من رحم الفلسفة التّحليلية، ونظرية المحادثة انبثقت من فلسفة "بول غرايس" (P.Grice)، وأمّا نظرية الملائمة فقد خرجت من علم النّفس المعرفي وهكذا .[3] لذلك كانت ملتقى للكثير من النّظريات المعرفية والفلسفية مما أدى إلى تعدد تعريفها حسب اهتمامات الباحث.

ولعل أوّل تعريف لها يعود إلى الفيلسوف "تشارلز موريس" (Ch.Moris) عام 1938، فقد اعتبرها جزءا من السّيميائية، حيث ميز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللّغة وهي: "علم التركيب "الذي يُعنى

---

(1) ينظر:طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط2، 2000، ص: 28.

(2) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص: 23.

(3) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص: 17.

بدراسة العلاقات بين الكلمات، و"علم الدّلالة" الذي يهتم بالمعنى الحقيقي للملّفوظات ،وأخيرا "التداولية" التي تدرس –حسب رأيه- العلاقات بين العلامات ومستخدميها.(1)

في السبعينيات من القرن العشرين، أصبح يُعتدّ بالتّداولية علما، بعد أن قام بتطويرها فلاسفة "أكسفورد" حيث درسوا اللّغة، وربطوها بكل ما يحيط بها أثناء التلفظ، فصارت التّداولية تهتم بوصف العلاقة القائمة بين "المرسل "و"المرسل" إليه أثناء الواصل، وتعنى بالحدث اللّغوي لفهم قصد المتكلم.(2)

وبذلك جمعت بالأقطاب التواصلية الثلاثة وهي"المتكلم" و "المتلقي" و "الخطاب"، وقد اختلف الباحثون في تعريفها، فهنالك من ركز على الخطاب،وعدّها مجموعة من الباحثون من البحوث المنطقية اللّسانية التي تُعنى باستعمال اللّغة،و تهتم بقضية التّلاؤم بين التعابير الرمزية والسّياقات المرجعية والمقامية.(3)

وهناك من ربطها بالمرسل،فعرّفها «بأنّها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللّغوية في ضوء عناصر السّياق، بما يكفل ضمان توفيق المعنى لدى المرسل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه.» (4)

وقد ربطها "محمود أحمد نخلة" بالسّامع «فعدها فرعًا من علم اللّغة، يبحث في كيفية اكتشاف السامع مع مقاصد المتكلم أو هو دراسة معنى المتكلم. » (5)

---

(1) ينظر: آن روبول – جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دعفوس محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص: 29.

(2) ينظر: نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والاجراءات، ص: 23،24.

(3)ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابرحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007، ص: 18.

(4) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص: 22.

(5) محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، دط، 2002، ص: 12،13.

المبحث الثاني:جذور التّداولية.

1- في التراث العربي:

إنّ دراسة عملية التّواصل أو الاتصال قديمة، تعود جذورها إلى الدراسات التنظيرية الأولى عند"الجاحظ"،و"أبي هلال العسكري"،و"ابن قتيبة"، "وحازم القرطاجني "وغيرهم، لكنها كانت ذات طابع معياري تهتم بالأثر النّاتج مباشرة عن الرسالة، والشروط التي تجعل الخطاب ناجحا، وفي هذا ملامح التّداولية الحديثة، فكما ركز هؤلاء المنظرون على "المرسل" و"المتلقي" و"الرّسالة"، وعملية التأثير والتأثر، والقصد ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام، فإنها أيضا تعد جوهر النظرية التّداولية.

أ- عند علماء الأصول:

يرى الكثير من المعاصرين أن موضوع "السّياق "، أو "المقام"كما عرفهُ القدماء يمثل بؤرة علم الدلالة اللّسانية، وأوجه استعمال اللّغة من التداول اليومي، لأنّه يعبر –باختصار- عن الجانب الاجتماعي للمعنى والوظيفة النفعية للغة في حياة الإنسان، وفي هذين الجانبين تظهر الأحداث ،والعلاقات ،والقرائن التي تسُود ساعة أداء المقال .[1] والحقيقة أن الجهل بهذه الظروف لا يمكن من الوصول إلى المعنى على الإطلاق.

لذلك قرر "ستيفن أولمان" (S.Aulman) بأنّه« لا يمكن الاستمرار في بحث تاريخ الكلمات منعزلا عن تاريخ الحضارة. »[2] وما تاريخ الحضارة إلا « ّأحداث اجتماعية ربطت مقالات معينة ببعضها، وأنزلتها في مسار الأحداث المتصلة، وتنزل قيمة السّياق في دراسة المعنى ضمن تحديد المعاني المتعاورة على اللّفظ الواحد

---

(1) حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 337.

(2) أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشير، مكتبة الشباب، مصر، دط، 1990، ص: 10.

بسبب الاشتراك أو تغير دلالة الكلمة عبر الزمن.» (1) ويعتمد السيّاق أساسا على «اللّغة بخاصة عند الشكليين لما هي علاقات بين عناصر منتظمة ،مما يحقق مناسبة أو مفارقة في المعنى، كما يعتمد على الظروف الحسية والنفسية المحيطة بالنص، وأكد المحيط الاجتماعي بما فيه من عادات وتقاليد، مما يؤكد ضرورة المعرفة التامة بأسباب النزول وأخبار العرب، وحياتهم العقلية والروحية والاجتماعية بصفة عامة، وهكذا امتدت قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللّغة وتنتهي بهذه القرائن المتعددة.» (2)

و"البيان" عند الأصوليين هو «مادة الدّليل الموصل إلى الحكم الشّرعي، وقد نهجوا في تحديده منهجا عقليا دقيقا، مستهدفين من وراء ذلك تحديد الدّلالة النّصية.» (3) ولعل اجتهاداتهم في تحديد أنواعه أبرز دليل على عنايتهم به، وسنكتفي بذكر هذه الأنواع التي تحيل إلى أغراض الخطاب، «من حيث هو بنية لسانية مؤسسة على عرف لغوي خاص ،وقصدية معينة تحققها جملة من الأساليب الإنشائية الطلبية، كالأمر والنهي، وما يحيلان عليه من دلالات دون الإيغال في تحليلها، حتى لا تخرج على الخط الذي رسمناه لأنفسنا بعد إغفال النقطة الجوهرية في الموضوع، وهي التركيز على محل هذه الآراء في نظرية الأفعال الكلامية، كما ذكروا في هذا المقام أركانا للبيان يقوم عليها، وهي المبين (الله عز وجل) ،أو(الرسول صلى الله عليه وسلم).ويمثل الدّليل الموصل إلى معرفة الحكم، أمّا اللّفظ الذي تتضح دلالته بحيث يعرف المراد منه، فهو المبين، في حين يمثل المبين إليه المتلقي، أو المكلف بالأحكام الشرعية.» (4)

(1) زوين علي، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1986، ص: 185.

(2) حسان تمام، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية، عالم الكتب، مصر، ط1، 1993، ص: 221.

(3) عبد الغفار السيد أحمد، التصور اللغوي عند الأصوليين، شركة مكتبات، عكاظ، 1981، ص: 128.

(4) الغزالي أحمد المستصعي، في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ، ص: 325.

إنّ هذا التصور يبين إدراكا عميقا لحقيقة العملية التبليغية، من خلال نموذج متميز هو القرآن، ذلك أن كامل عناصر الأصوليين ،كانت منصبة على إبراز خصوصيات الإعجاز النّصي، وكيفية تلقي المكلفين للآيات القرآنية، بوصفها جملة من الأفعال القابلة للإنجاز والعمل، وهم لذلك يجبون على السؤال الذي أثار المحدثين حول كيفية تحويل القول اللّساني إلى فعل منجز حقيقة.

وفي سياق تعاضد الخطابات، أو ما يمكن أن يُعد نصوصا موازية تسهم في تلقي المنتج، بوصفها سياقات معرفية ولغوية، يشير "ابن حزم "إلى « ضرورة التوقف مع مصادر التشريع جملة واحدة، لفهم أغراض الخطاب الديني القرآني ومقاصده، فالقرآن مصدر المصادر كلها، في نظرية الفقه ،والاستنباط، وما من أصل شرعي إلاّ كان اشتقاقه منه، وهو الذي ثبتت به الرسالة المحمدية ،بوصفه المعجزة الإلهية المؤيدة للنبوة.» [1]

ب– عند البلاغيين:

من أهم العلوم المكملة في الدرس العربي القديم "البلاغة"، إذ تمثل علما للاتصال، يتناول كل ما يرتبط باستعمال اللّغة وممارستها، من دون أن نستثني في ذلك شيئا مما له لعاقة بالتواصل.[2]

يرتبط مصطلح"البلاغة" عند أهل اللّغة، بالدّلالة على حسن الكلام مع فصاحته، وأدائه للغاية المرادة منه (القصد)، فهي مأخوذة من قولنا: بلغ الشيء منتهاه وأدرك أقصاه.

---

(1) ابن حزم أبو محمد، الإحكام في أصول الأحكام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط،دس، ص: 881.

(2) ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 154.

وإذا عدنا إلى المعاجم اللّغوية نجد المعاني نفسها، حيث يدل أصل المادة: بلغ على وصول الشّيء إلى غايته ونهايته، تقول: «أبلغتُ الشّيء إبلاغا وبلاغا، وبلّغتُه تبليغا، إذا أوصَلتُه إلى غايته ونهايته.»[1]

كما أشار "أبو هلال العسكري"إلى أصلها اللّغوي «فرأى أنّ البلاغة سميت بلاغة لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السّامع فيفهمه.[2]

فنلاحظ أنّ معنى "البلاغة" بصفة عامة ينهض على مراعاة طرفين اثنين:

- هو المتلفظ بالخطاب البليغ، ويجب أن تتوفر صفات معينة ،حتى يتمكن من التأثير في مخاطبه وبلوغ المبلغ الذي يريده منه.

- المتلقي للخطاب المبثوث من قبل المخاطب ،في شكل رسالة بليغة ،وسليمة حتى تحدث الأثر المطلوب.[3]

أي أنّ "البلاغة" تبحث في كيفية استخدام اللّغة بطريقة سليمة، تضمن وصول قصد المتكلم ومراده إلى المخاطب والتأثير فيه، وهذا يُعد من صميم البحث التداولي، الذي يعالج درجات التفاعل الاتصالي بين المخاطِب ،والمخَاطب ،وشدة التأثير وقوته.

تُعدّ "البلاغة "أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التّداولية في اللّغة، لأنّها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته: اللّفظية، والتركيبية، والدّلالية، والعلاقات القائمة بينها.

---

[1] باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد:7، 2011، ص: 165.

[2] ينظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل ابراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،دط، 1986، ص: 06.

[3] ينظر:خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 158.

وإذا كانت "التّداوليّة" في أوجز تعريفاتها « هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللّغة حين الاستعمال، فإنّ "البلاغة" هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها، وبكلمة أدق هي: (فن القول). » [1]

وقد استعان"السكاكي" في تعريفه "للبلاغة"، بالمنطق لكي يصوغ ألفاظه بدقة وإحكام، فنجده يقوم على جملة من العناصر، تحمل مظاهر وسِمات تؤكد على البعد التّداوليّ للبلاغة العربية:

– أنّ المتكلم يجب أن يبلغ في استعماله للكلام الحد الذي يمكّنه من توفية تراكيب الكلام حقّها، فيكون فصيحا، ملتزما بما ثبت في متن اللّغة من قواعد، ويختار الفصيح من مفردات اللّغة وجملها، ويجتنب الخطأ في تأدية المعنى وعدم التعقيد في أدائه، وهي جوانب تعنى بها اللّسانيات التّداولية، من خلال دراسة اللّغة في سياقات استعمالاتها تجنبا لتعقيد الألفاظ والمعاني.[2]

– يجب على البليغ أن يوظف في كلامه طائفة من الأدوات البلاغية نحو: التشبيه وأنواعه، المجاز ...الخ، كي يكون خطابه بليغا، بحيث يؤثر في المتلقي على النّحو الذي يرمي إليه، وتُعدّ هذه الجوانب البلاغية المرتبطة بالخطاب: مؤشرات تداولية مهمة، تعنى بها قضايا التّداولية أيما عناية، على نحو ما نجد في النظرية الإشارية ، والحجاج اللّغوي، وأفعال الكلام.

– إنّ للبلاغة طرفين أعلى وأسفل، وبينهما مراتب لا بد من الاشتمال على الأدوات البلاغية، والتي أشار إليها "السكاكي" (التشبيه، المجاز، الكناية، ...)الخ.

---

[1] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية ، ص: 154.

[2] ينظر: باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، ص: 166.

وبحسب جودة توظيف هذه الأدوات، وشدة إحكامها بما يتناسب مع مقتضى الحال؛ إذ لكل مقام مقال.(1)

تُعنى "البلاغة" بصفة عامة بجملة من العناصر، تُعدّ من صميم بحث اللّسانيات التّداولية، وتكون في الكلام والمتكلم وهي:

- صحة اللّغة وصوابها، ويشتمل الاهتمام لمستويات اللّغة جميعا، وعناية بسلامة الألفاظ من العيوب.

- أن يكون المعنى الذي قصده مطابقا ومنسجما مع الألفاظ، والجمل التي استعملها المتلفظ في خطابه.

- أن يكون المتلفظ صادقا مع نفسه، كما يشتركان في الاعتماد على اللّغة، بعدّها أداة للممارسة الفعل على المتلقي في سياقات مخصوصة. (2)

ونجد بعض العلماء المحدثين من يساوي، بين "البلاغة" و"التداولية" مثل: "جيفري ليش" (J.Letich)

حيث يرى أنّ البلاغة «تداولية في صميمها؛ إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع.» (3)

(1) ينظر: باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية ، ص: 167.

(2) ينظر:نفسه، ص: 167.

(3) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، أدبيات الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان،مصر، إشراف محمد مكي علي، ط1، 1996، ص: 124.

ومن الباحثين العرب أيضا، من لا يميز بين التّداولية والبلاغة حيث يقول أحد الباحثين: «وحديثا يعيد الاعتبار إلى البلاغة العربية، في الدّراسات السّيميائية تحت عنوان جديد التّداولية.»[1]

ويظهر من خلال هذا العرض ،أنّ من أهم اهتمامات البلاغة العربية ومجالاتها (الإيصال والإبلاغ) وتتناول في ذلك شروط هذا الإيصال وظروفه، وكل ما يتعلق بالمتكلمين، وما يرتبط بالمعنى.

وبالتالي لها مجالات مشتركة مع ما تتناوله اللّسانيات التّداولية، كما تحمل قيم تداولية في دراسة اللّغة.

2- في التراث الغربي:

أ- عند أرسطو: (Aristote)

تحمل معظم مؤلفات"أرسطو"فكرة الحجاجية، سواء في عرضه من مبادئ، أم فيما عارض به سابقيه ومعاصريه، وربما كانت: المواضع، والتبكيتات السفسطائية، والخطابة أكثر المؤلفات حملا لآراء"أرسطو"، ففيها نجد:

- جدلا صريحا أحيانا، وضمنيا أحيانا أخرى مع معلمه "أفلاطون" (Aphelaton)، حيث طرح مشاريع تلتقي في جوانب مع تفكير " أفلاطون"، وفي جوانب أخرى معرفية ،ومنهجية وفكرية، تختلف أشد الاختلاف.
- جدلا صريحا واضحا محددا، ومنظما مع السفسطائيين، إذا اعتبر الأساس الذي بنيت عليه خطاباتهم فاسدا.
- جدلا مع خطباء أثينا وأدبائها، وضع تصورًا جديدًا للخطابة، يختلف عن ذلك الذي عرفه قبله. [2]

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت،دط، 1999، ص: 214.

[2] ينظر:حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مقال ضمن مجلة عالم الفكر، الكويت،العدد 1، 2001، ص: 10.

وقد فصل"أرسطو"الجدل عن الخطابة، وأشار إلى ما بينهما من صلة، بأنّ بيّن أوجه الشبه، والخلاف بينهما، ومن بينها:

- أنّ ليس لهما موضوع واحد محدّد، وإن كان الجدل أوسع أفقا.

- يستعملان القياس والاستقراء.

أمّا أوجه الخلاف:

- فالجدل مداره حول مطلوب جدلي، وهو سؤال لا يوجد في خصوصه رأي آخر، أمّا الخطابة مدارها المسائل التي تتميز بطابع المناقشة.

- يصطبغ الجدل بطابع الحوار، ومشاركة الطرفين ضرورية، أما الخطابة لا تقوم على السؤال ،وإن كان منشؤها السؤال، فغايتها محاولة الاقناع. [1]

- لا يمثل الشخصان في المجادلة نفسيهما فقط، بل قد يمثلان مذهبين، أو فكرين، أو ديانتين، أما عدد المقول إليهم في الخطابة لا يشكل فرقا مميزا، فقد يكون الموجه إليهم جماعة، كما قد يكون شخصا واحدا.

- هدف الجدل نظري، محض قضايا فكرية، أما هدف الخطابة عملي، في أهم مظاهرة تحدث تغييرا في الاعتقاد والسلوك.

- كما بيّن"أرسطو" منافع كل من الجدل والخطابة، فعدّ الجدل وسيلة فعّالة لتواصل الآخرين، ومجالا للنظر والبحث الفكريين، كما أنه إذا لم يكن هناك خلل في حجاجك، يتمكن الطرف الآخر من الانتصار عليك. أمّا

[1] أرسطو طاليس، الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار القلم،لبنان، دط، 1979، ص: 17.

منافع الخطابة حسب "أرسطو" فإنها الضامنة للقيم التي يجب مراعاتها في شؤون الاجتماع، والسياسة والأخلاق، وهي قيم العدل، والنفع، والخير. [1]

- خالف"أرسطو"أستاذه "أفلاطون"في أنّ الجدل سبيل إلى الحقيقة، وذلك أنّ " أرسطو" في تصنيفه للأقاويل بحسب قدرتها على قول الحقيقة ،جعل القول البرهاني في المقام الأول، فالقول الجدلي ،والقول الخطابي، ثم الشعري، فالجدل والخطابة عند"أرسطو" يقعان في مجال الممكن والمحتمل، أي يقبل الخلاف، والاختلاف، وتعدّد الآراء من حوله، وقد ذكر أنّ الجدل ليس المطلب منه الحقيقة بالأساس خلاف"أفلاطون"، وإنّما المقصود منه هو امتحان ما هو خلاف في المشهورات ؛أي في عوالم الاعتقاد كما يقال اليوم، للاقتراب أكثر ما يمكن من الحقيقة. [2]

ويرى أنّ الجدل « أقرب إلى جائرة الحق، لإعتماده على العقل، في حين أن الخطابة صناعة، مدارها الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان.» [3]

وهذا التعريف للخطابة شبيه جدا بتعريف الحجاج، خاصة وأنّ العلاقة بين أطرفهما «تتأسس على اللّغة والخطاب، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل، جنسا من التأثير يوجه له فعله، أو يثبت لديه اعتقادا، أو يمليه عنه، أو يضعه له وضعا.» [4] وبذلك حوّل"أرسطو"مركز الثقل في صناعة الخطابة من التأثير إلى الإقناع، وهو أحد سبل الحجاج، كما نبّه "أرسطو" إلى شيوع استعمال الحجاج في عملية التواصل الكلامي

---

[1] ينظر:أرسطو طاليس، الخطابة، ص: 17.

[2] ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو ضمن مصنف أهم النظريات الحجاج في التقاليد الغربية،كلية الآداب تونس، ص: 155.

[3] أرسطو، الخطابة ، ص: 59.

[4] حمادي حمودي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، فريق البحث في البلاغة و الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم:إشراف صمود حمادي ،كلية الآداب منوبة،تونس ،ص: 123.

عموما، على أنّ النّاس –حسب رأيه– يمارسون الخطابة والجدل بنسب متفاوتة، لأنّهم إنّما يحاولون نقد قول، أو تأييد رأي،أو الدفاع عنه ونحو ذلك.

أمّا إلى بناء الخطاب الحجاجي، فقد جعل" أرسطو" المكونات النصيّة للخطاب، أو جذاء الخطاب إلى ثلاثة:

–**الإيجاد**: الحجج، مصادر الأدلة.

– **التركيب**: وضع هذه الأدلة في مواضعها على امتداد الخطاب حسب نظام معين.

– **الأسلوب (العبارة، الصياغة)**: وضع الحجج في شكل قول على مستوى الجملة.[1]

أي يمكن أن نستخلص حسب مقولات "أرسطو" عناصر الخطابة، متمثلة في النقاط المذكورة، نلخصها فيما يلي:

– عنصر الإقناع أو البراهين.

– الأسلوب أو التنظيم.

– ترتيب أجزاء القول.

إلاّ أنّ "أرسطو" في خطاباته كان لا يهتم من لغة النص والخطاب إلا ببعض المظاهر المساعدة، وبالقدر الذي حدده هو، وقد انطلق "أرسطو" من كون البلاغة (الخطابة) إنّما هي « الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع.» [2]

---

(1) ينظر: محمد العمري، الخطابة أصولها وامتداداتها، ص: 273.

(2) أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص: 29.

هذا الإقناع يتوقف على ثلاثة أركان: « الأيتوس، الياتوس، اللوجوس، وقد قال في هذه المكونات الثلاث: أمّا اللاّتي ينبغي أن يكون القول فيهنّ على مجرى الصناعة فثلاث: إحداهنّ الإخبار من أي الأشّياء تكون التصديقات، والثانية ذكر اللاّتي تستعمل في الألفاظ، والثالثة أنّه كيف ينبغي أن تنظّم أو تنسق أجزاء القول. » (1)

وإنّ مقارنة في تعريف الخطابة بين السوفسطائيين "أفلاطون" و"أرسطو"،كفيلة بأن تكشف عن كثير من المسائل الحجاجية، التي يعولّون عليها في مخاطباتهم، فهي عند السوفسطائيين صناعة إقناع، وعند"أفلاطون" صناعة قيادة النفوس بالقول، وهي عند"أرسطو" الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان. وإنّ هذه التعريفات تكشف لنا الاختلاف فيما يدعو إليه كل طرف.

فكلمة "إقناع" لم ترد في تعريف"أفلاطون"، ووردت في تعريف "السوفسطائيين"، و" ارسطو"، على ما بين هذين الأخيرين من نتباين في الغاية وقد وردت منها «قيادة النّفوس»."فأفلاطون" لا يهمه من الحجاج كسب القضية أو إحراج الخصم ،أو تحقيق نجاح، وإنّما يهمه فضيلة النفس.(2)

ب- الحركة السفسطائية:

لقد قدم الفلاسفة اليونانيون أمثال "سقراط"وتلميذه "أفلاطون"،ومن بعدهما "أرسطو" والسوفسطائيين بعض الأساليب الحجاجية الماهرة، والتي اشتهروا بها، وأصبحت من المكونات المحورية في عملية الحجاج من بعدهم.

---

(1) نفسه، ص: 181.

(2) ينظر: علي محمد علي سليمان،كتابات الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج ،المؤسسات العربية والنشر،البحرين،دط،2010 : 37.

السوفسطائيين يمثلون حركة فلسفية ،وظاهرة اجتماعية برزت في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تميّز روادها بالكفاءة اللغوية البلاغية، وبالخبرة الجدلية، ويتجلى ذلك من خلال تسميتهم التي كانت تعني: الحكيم الخبير بكل فن وأسلوب.

لقد اهتم السوفسطائيون ببنية كل من الكلمة والجملة، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الاقناع ،ويحدث تغيير مواقف الآخرين، واستعانوا في سبيل ذلك بخبرة بالغة بمقامات النّاس، وبكليات إجراء اللّغة بحسب المقاصد والظروف التّواصليّة. (1)

لقد كان للحجاج والبلاغة السفسطائية عمق وجدوى ،متأتيان من تصورهم للخطاب، ومن دوره في تحقيق الوجود، وتجسيد الحضور، ونفي الغياب، وإن كان هذا الحضور (اللّغوي) في نظرهم يظل مجازيا، إذ هو تجسيد (صوتي) للغياب العيني، نظرا إلى استحالة نقل (الحقيقة الوجوديّة) بصفة تامة.(2)

وعمد السفسطائيون في ممارستهم للحجاج بحسب مقتضى الحال، وتعتبر فكرتا: "التوجيه" و"التوظيف" من الأفكار السفسطائية، التي سيكون لها دور بنائي قوي في معظم البحوث الحجاجية.(3)

وما ميّز السفسطائية عن غيرها من الحركات الفلسفية، هو قولها بسلطة الكلمة والخطاب، هذه السلطة التي تم الاعتراف بها قبل القرن الخامس قبل الميلاد، وجسدتها الإلياذة والأوديسة، إلاّ أنّ السفسطائية احتضنت بمحاولتها إقامة نظرية كاملة حول سلطة الكلمة، وأن الخطابات المنسوبة إلى "جورجياس" تفيد هذا المعنى الوجه

(1) ينظر: الزاواوي بغوره، الفلسفة واللغة (نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص: 24.

(2) ينظر: نفسه، ص: 26.

(3) ينظر: الزاواوي بغوره، الفلسفة واللغة ، ص: 27.

بحيث نجده يؤكد على سلطة الخطاب ،وأنّ الخطاب يمارس سلطة، مثل سلطة السحر، أو الدواء، وله جانبان سلبي وإيجابي، أمّا الخطابة كفن وعلم، فهي مجد تقنية، يمكن أن تنتج الرأي الصحيح، أو الرأي الخطأ.

إلاّ أنّ ما تجدر ملاحظته في هذا السّياق هو « أنّ السفسطائية لم تبين هذا النشاط اللغوي وكيف يمكن أن يمتد إلى مسائل وجودية ومعرفية وأخلاقية، ولعل من هذا الباب نفهم ذلك النقد العنيف المقدم للخطابة والبلاغة من قبل"أفلاطون"و"أرسطو"، لأنها لا تستعمل إلاّ لشحذ الجمهور أو العامة، ولا تعتمد على المعرفة ،والعلة ،والبرهان ،والحقيقة، بل تقوم على الرأي والإقناع والتضليل. » (1)

فكانت غاية السفسطائيين من ممارسة الحجاج الحصول على سلطة المجتمع، وكذلك تعليم الشباب الخطابة ،والبلاغة، والإلقاء ،والقدرة على الجدل، حتى يستطيعوا أن يواجهوا كل مسألة تُعرض، إمّا بفكرة صحيحة ،أو بالتلاعب بالألفاظ لإفحام السائل، لذلك كان من أهم تعاليمهم علم البلاغة، فهم يعلمون الشباب كيف يخدمون الفكرة، وعلى أي وجه كان سواء بالحق أو بالباطل، فيكسبون الخصم بشتى الوسائل كاللعب بالألفاظ، الاستعارات والكنايات الجذابة بخداع المنطق، وتمويه الحقيقة، ومن أجل ذلك سمي اللّعب بالألفاظ والتهريج في الحُجج "سفسطة". (2)

من خلال ما أورده السوفسطائيون، نفهم أنّ نظرتهم للحجاج تكمن في التّلاعب بالألفاظ، والهروب من الحقيقة، باستعمالهم حججًا خادعة، يحاولون من خلالها التأثير وإقناع المتلقي.

المبحث الثالث:التّداولية حديثا

(1) نفسه، ص: 13، 14.

(2) ينظر: حسين بوبلوطة، الحجاج في الإمتاع والمؤانسة (أبي حيان التوحيدي، رسالة ماجستير في اللغة العربية، تخصص لسانيات الخطاب، جامعة الحاج لخضر ،باتنة، 2009-2010، ص: 09.

1- نشأة التّداولية وتطورها:

التّداوليّة علم بعلاقاته غزير المبادئ والمناهج، انبثق من التفكير الفلسفي في اللّغة، بَيد أنّه سرعان ما تجاوزه ليعمل على صقل أدوات تحليله، وبخاصة التّداولية اللّسانية موضوع حديثا.

إن اللّسانيات التّداولية اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير، بدأت على يد "سقراط"، ثم تتبعه "أرسطو" والرواقيون من بعده، غير أنّها لم تظهر إلى الوجود باعتبارها نظرية للفلسفة إلاّ على يد "تاركلي" (Tarklly) تعديها طائفة من العلوم على رأسها: الفلسفة واللّسانيات والأنثربولوجيا وعلم النّفس وعلم الاجتماع.[1]

والتّداولية اللّسانية اتجاه جديد في دراسة اللّغة، يبحث عن حل لعديد من المشاكل اللغوية، التي أهملتها اللّسانيات، ولم تهتم بها نحو (الفونولوجيا، التركيب والدّلالة)، ولذلك يعترف "كارناب" : « أنّ التّداولية درس غزير وجديد، بل يذهب إلى أكثر من هذا بقوله: إنّها قاعدة اللّسانيات.»[2] كما أن اللّسانيات التّداولية تشكل محاولة جادة للإجابة عن جملة من الأسئلة ،تفرض نفسها على الباحث ،والبحث العلمي بعامة، وعجزت اللّسانيات عن الإجابة عنها ،متوسلة في سبيل ذلك عديدا من العلوم الإنسانية، والاجتماعية ،وهي أسئلة من قبيل: ما نصنع حين نتكلم؟، ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟، من يتكلم؟، ومع من يتكلم؟، ومن يتكلم ولأجل من؟، ماذا علينا أن نعلم حين يرتفع الإلهام عن جملة أو أخرى؟، كيف يمكننا قول شيئا آخر غير الذي كنا نريد قوله؟، هل يمكن أن نركن إلى المعنى المعرفي لقصد ما؟، ما هي استعمالات اللّغة؟.[3]

---

(1) ينظر: نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2009، ص: 95.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص: 23.

(3) ينظر: فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولي،مقاربات تداولية،ترجمة:سعيد علوش،المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع،الدار البيضاء، المغرب، ط 1 1987،ص: 23، 24.

ولم تصبح التّداولية مجالا يعتد به في الدّرس اللّساني « إلاّ في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن طوّرها فلاسفة اللّغة ،المنتمين إلى جامعة أوكسفورد (Oxford)"جون أوستين" (**J.Austine**)، "وجون سيرل" (Jsearl)، " بول غرايس"(Paul grise)، وهم من مدرسة فلسفة اللّغة الطبيعية (Langage natural)، في مقابل مدرسة اللّغة الشّكلية (الصّورية) (Formal langage) وكانوا يذهبون إلى إيجاد طرق لتوصيل معنى اللّغة الإنسانية، من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، فكان عملهم من صميم البحث التداولي. » [(1)]

وكانت بداية تطور اللّسانيات التّداولية «بنظرية"أفعال الكلام"، التي ظهرت مع" جون أوستين" وتطورت على يد"جون سيرل"، وبعض فلاسفة اللّغة من بعده، لتظهر بعدها جملة من المفاهيم، والنظريات التي تشكل مجتمعة ما يعرف باللّسانياتالتّداولية (أفعال الكلام، الاستلزام التخاطبي، الاشاريات... »

إنّ "جون أوستين"حينما ألقى محاضرات"ويليام جيمس"(William Jimes) عام 1955، « لم يكن يهدف إلى وضع اختصاص جديد للّسانيات، أو فرع جديد لها، وإنما كان يرمي إلى وضع اختصاص فلسفي جديد هو (فلسفة اللّغة)، بيد أن تلك المحاضرات صارت فيما بعد بوثقة للّسانيات التّداولية. »

وانطلق "أوستين" من ملاحظة بسيطة مفادها أنّ «كثيرا من الجمل، التي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب، لا تستعمل لوصف الواقع بل تغييره، فهي لا تقول شيئا عن حالة الكون الراهنة، أو السابقة إنما نغيرها، أو نسعى إلى تغييرها. » [(2)]

فجملة "آمرك بالصمت" لا تصف واقعا، بل تسعى إلى تغيير حالة الضجيج إلى الصمت، وبناء على هذه الملاحظات قسم "أوستين" الجمل إلى جمل وصفية، يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وجمل إنشائية

---

(1) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 9، 10.

(2) آن رويول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دعفوس، محمد الشيباني، ص: 30.

لا ينطبق عليها الحكم، وتقابل في الثقافة اللغوية العربية، الجمل الخبرية والإنشائية، مثلما نجدها عند علماء النحو والبلاغة،و كذا علماء التفسير، وأصول الفقه في أبحاثهم، وتنفرد الجمل الإنشائية بخصائص، لا توجد في الجمل الوصفية، نحو كونها تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، وتتضمن فعلا من قبيل "أمر" و"وعد" و"أقسم" ويفيد معناه على وجه الدقة إنجاز عمل، وتسمى هذه الأفعال أفعالا إنشائية[1]، ويمكن الحكم على هذه الأفعال الإنشائية ،لا بعيار الصدق والكذب، وإنما بعيار التوفيق أو الإخفاق، فعندما تأمر الأم مثلا ابنها قائلة: "نظف أسنانك، ويرد عليها: لا أشعر بالنعاس" فالأم هنا لم تقل كلاما صادق أو كاذب، بل قدمت أمرا لابنها وأمرها هنا أخفق؛لأن الإبن لم يمتثل لأمرها، ولو قام بالفعل لقلنا أنّ أمر الأم كُلّل بالنجاح.

بيد أنّ "أوستين"اكتشف فيما بعد أن « المقابلة بين الجمل الوصفية، والجمل الإنشائية ليست بالبساطة التي كان يظن، ذلك أنّ هناك جملا إنشائية لكنها لا تستند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال ،ولا تتضمن أي فعل إنشائي مثل: "رفعت الجلسة". »[2] وقد قادته هذه الملاحظات الأخيرة ،إلى وضع مفهوم جديد مفاده: أن كل جملة تامة مستعملة،تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، وهو مفهوم الأعمال اللغوية التي ميز فيها"أوستين"ثلاثة أنواع:"العمل القولي"، و"العمل المتضمن في القول"،"عمل التأثير بالقول". فنجده واضحا ردُّ الابن على أمه.

وقد شكلت أفكار وملاحظات"أوستين"،بداية موفقة لنظرية الأفعال الكلامية ،أو نظرية تداولية لسانية ،ثم سرعان ما فتئت تتطور شيئا فشيئا مع فلاسفة اللّغة.

2- مهام التّداولية:

[1] ينظر: نفسه، ص: 31.

[2] نفسه ، ص: 31.

نشأت الدراسة التّداولية بعد الدراسات البنيوية، والدراسات التوليدية التحويلية ،وما دامت العلوم هي حصيلة تراكمات معرفية ،يستفيد بعضها من بعض آليات المحافظة ،والتصحيح ،والتّعزيز، والتّثمين ،والإضافة؛ أي أنّ الدراسات اللاحقة تحافظ على مكتسبات المعارف السابقة لها، مع عملها على تصحيح أخطائها، التي أثبتتها دياكرونية الزمن، من أجل تعزيز وتّمين ما يتطلب تثمينه، وكذلك كان حال الدراسة التّداولية التي اهتمت بدراسة الجوانب التي لم تدرسها البنيوية ،والتوليدية التحويلية ،ويمكن اختصار أهم مهام التّداولية في ما يلي:

- « التأثيرات الفعلية للخطاب، وبذلك تحول الاهتمام في عهد التّداولية إلى الفعل التخاطبي، والفعل اللغوي بدل الجملة ،كما كان في الدراسة البنيوية، وتتجلى هذه المهمة في "نظرية الأعمال اللّغوية "، التي عمل عليها "سيرل"، بعد أن استفاد خارطة طريقها في محاضرات"أستين".» [(1)] ومفهوم "العمل اللّغوي" يتلخص في أنّ «اللّغة في الواصل ليس لها أساسا وظيفة وصفية ،بل لها وظيفة عملية ،فتستعمل اللّغة فإنّها لا تصف العالم بل تحقق أعمالا هي الأعمال اللّغوية، فكان وجود ظواهر لغوية خاصة ،دلالة على العمل اللغوي وهو أحد برامج البحث الأولى، التي اعتمدها اللّسانيون لتأسيس التّداولية.»[(2)]

- دراسة أحوال التخاطب وملابساته المقامية، وهي الأمور التي كانت مقضاة من قبل البنيوية، والتوليدية التحويلية، قبل ظهور الاتجاه التداولي الذي يَعد اللّغة أداة تواصلية ،وتخاطبية بين متكلم، ومخاطب في مقام معين محدد، وهو ما يوصف بظروف الاستعمال من حيث أنّ «الاستعمال ليس محايدا، من حيث تأثيراته، في العملية التواصلية، ولا في النظام اللغوي في حد ذاته، فمن ناقل القول فعلا أن تشير إلى أن بعض الكلمات المشيرات الدالة على الزمان، أو المكان، أو الأشخاص من قبيل الآن، وهنا أن لا يمكن تأويلها إلا في سياقها [...]

---

(1) جاك موشلر، آن روبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الباحثين، المركز الوطني للترجمة، دار سباترا، تونس، ط2،دس، ص: 67.

(2) جاك موشلر آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية،ص: 22.

إن استعمال الأشكال اللغوية، ينتج عنه بالمقابل إدراج الاستعمال في النظام نفسه، فمعنى القول يقوم على شرح لظروف الاستعمال أي لأداء ذلك القول.» [1]

- « دراسة وجوه الاستدلال، والاستلزام الحواري للتواصل اللغوي؛ لأنّ المتكلم يستعين بأقواله لأداء دلالات تواصلية أخرى، فوق تلك التي تؤديها من خلال دلالتها الحرفية مثال: الاستدلال بالاستلزام الحواري: أيمكنك أن تمد لي الملح؟...»[2]

وقد تمكن "فرانسوار أرمينكو"في كتابه (المقاربة التّداولية)، من التعبير عن مهام التّداولية ،في شكل أسئلة مثيرة ترسم حدود التّداولية في قوله: « ماذا تصنع حين تتكلم كما تقول بالضبط حين تتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا، بينما يظهر واضحا أن في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلم إذا؟ وإلى من يتكلم ولأجل من يتكلم؟ ماذا علينا أن نعمل حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ وماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن تركن إلى المعنى الحرفي بقصد ما؟ ما هي استعمالات اللّغة؟ أي مقياس يحدد الواقع الإنساني اللغوي.» [3]

ويمكن القول بشكل عام ،إنّ الجانب التداولي يضم أثر المتلقي ،والموقف، وهدف النص ،والمقام، ونوع المعلومة المطروحة ،وأنواع التفاعل ،وأشكال السياقات ،وكيفية التواصل، وغير ذلك يختص بالعلاقة بين العلامات ،ومستعملي هذه العلامات.

3- مفاهيم التّداولية وقضاياها:

---

(1) نفسه، ص: 21.

(2) نفسه، ص: 26.

(3) جاك موشلر آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص: 28.

إنّ اتجاه اللّسانيات التّداولية ينبني في أسسه على مجموعة من المفاهيم، التي تمثل الملامح القومية المميزة لها عن باقي الاتجاهات اللّسانية الأخرى، وقد لا نستطيع رصد جميع هذه المفاهيم، وذلك لأسباب منها: اتساع مجال التّداولية، وتعدد بيئة نشأتها، مما جعل حصر قضاياها يكاد يستعصي على من أراد أن يرسم حدودا لها، ونذكر من أبرز هذه المفاهيم على سبيل المثال لا الحصر: الأفعال الكلامية، الاستلزام الحواري، متضمنات القول، نظرية الملاءمة، الاشاريات، ومفاهيم أخرى.

أ- الأفعال الكلامية (Speechacts) :

وهي الفكرة الأولى التي نشأت منها اللّسانيات التّداولية، ومن أهم مراجعها، بل يمكن التأريخ منها والحديث عن التّداولية يحيل مباشرة إلى الحديث عن أفعال الكلام، لأنها تعكس لنا الجانب المادي للأعمال التّداولية، فالفعل اللغوي هو: «[...] كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي، إنجازي، تأثيري، وفضلا عن ذلك يُعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعال قولية (Actes locutoires) ،لتحقيق أغراض إنجازية (Actes locutoires) (كالطلب والأمر والوعد والوعيد ...الخ)،وغايات تأثيرية (Actes Perlocutoires) تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعيا ،أو مؤسساتيا ومن ثم إنجاز شيء ما.» [1]

والرسم الموالي يوضح ذلك: [2]

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص: 40.

[2] علي خفيف، شعرية الخطابة العربية، أطروحة دكتوراه في تحليل الخطاب، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2007-2008، ص: 96.

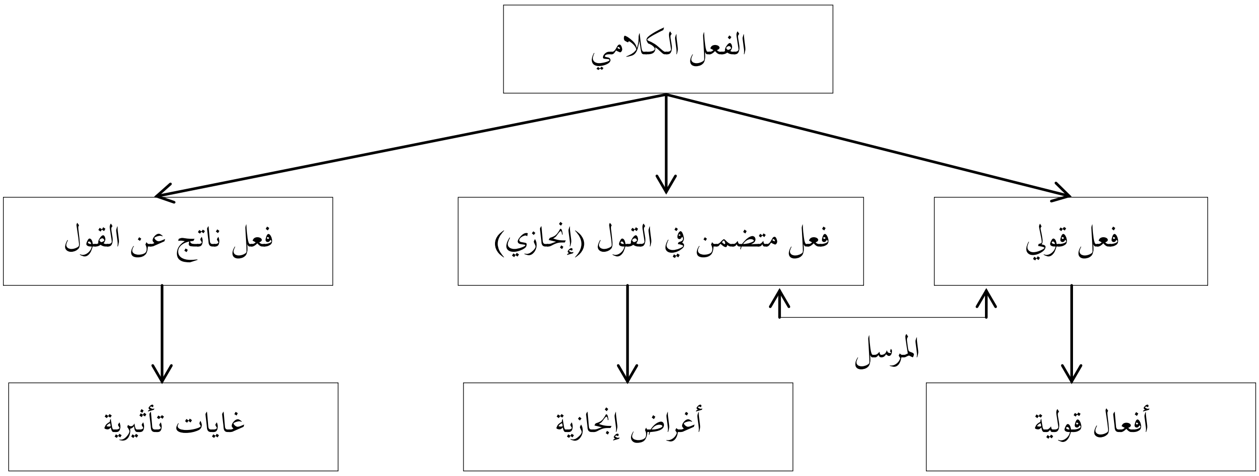

وكان "أوستين" قد وضح ذلك عندما قسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام:

- **فعل القول (Acte locutoire):**

يقابل القول: الصوت، التركيب، الدلالة والتداول فهو« يقابل التلفظ بالأصوات (فعل صوتي)، والتلفظ بالتراكيب (فعل تركيبي)، واستعمال التراكيب حسب دلالاتها (فعل دلالي)» ويعدّ فعل القول حين استعماله في مجاله النفعي تحقق تداولي.

- **الفعل المتضمن في القول (Acte illocutoire):**

« يحصل بالتعبير عن قصد المتكلم من أدائه: يعدُ، يخبر، يعجب، يندر، ويشمل (الجانب التبليغي والجانب التطبيقي) . » [1]

- **الفعل الناتج عن القول (Acte perlocutoir):**

(1) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 96، 97.

وهو بدوره الناتج عن إصدار سلسة من الأفعال القولية ،المصحوبة بقوى إنجازية أي:« [...] التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر، ومن أمثلة تلك الآثار: الإقناع، التضليل، الإرشاد »،ويطلق عليه أيضا اسم "الفعل التأثيري". [1]

ونخلص من هذا التقسيم عند "أوستين"،إلى أنّ وظيفة اللّغة عنده هي استعمال، وإنجاز لمجموعة من الأفعال اللغوية، وبذلك تصير الوحدة اللغوية الصغرى المعتمدة في التواصل هي الفعل بدل الجملة.

ويعتبر "سيرل" أوّل من أوضح فكرة "أوستين" ،بتقديمه شروط إنجاز كل فعل، وتحوله من حال إلى حال، ففي قول قائل: "أظن الباب مفتوحا" لأحد ،أو لمجموعة طلبة مشوشين، يخضع إلى جملة من الخطوات لإدراك الفعل المقصود إنجازه منها:

1- هناك مجموعة من الطلبة يريدون الفهم، فأنا أطلب منكم التزام الصمت أو الخروج.

2- من الأدب أن نسمع لمن يتكلم، فهو ينبههم إلى سوء السلوك.

2- إنّ التحصيل العملي يتطلب السكوت والتركيز، فلا ينبغي الكلام.[2]

ومما قدمه "سيرل" عمّا جاء به "أوستين"، أنّه عَمد إلى تقسيم الأفعال الكلامية، وميّز بين أربعة أقسام:

1- «فعل التلفظ (الصوتي، التركيبي).

2- الفعل القضوي (الإحالي والجملي).

3- الفعل الإنجازي.

4- الفعل التأثيري. » [1]

---

(1) مسعود صحراوي، التداولية عن علماء العرب، ص: 42.

(2) ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 98.

وقد ميز "أوستين" في الفعل اللغوي بين عناصر فعلية ثلاثة:

1–الفعل الكلامي (L' acte locutoire):

وهو التلفظ «بصيغة ذات صوت محدد ،وتركيب مخصوص ودلالة معينة.» [2]

2– الفعل التكلمي (L' acte illocutoire):

تواصليا هو الفعل « الذي تؤديه هذه الصيغة التعبيرية في سياق معين ،كالوعد القريب في قول القائل: "سأعود قريبا إلى القدس" والوعيد البعيد في قوله: "سوف أعود إلى القدس. » [3] ، تستعمل (س التسويف) تداوليا لتقريب فعل الوعد ، وتستعمل (سوف) للوعد البعيد.

3– الفعل التكليمي (L' acte perlocutoire):

وهو «أثر الفعل التكليمي في المستمع.» [4]

ب– الاستلزام الحواري (Conversation Implicative):

مقتضى هذه المسلمة أنّه لا كلام مفيد إلاّ بين اثنين، لكل منهما مقامان هما مقام المتكلم ،ومقام السامع[5]، ويرجع الفضل في نشأة هذا الجانب من الدرس التداولي إلى الفيلسوف الأمريكي "بول غرايس"في

---

(1) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية ، ص: 99.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998، ص: 260.

(3) نفسه ، ص: 260.

(4) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 260.

(5) ينظر: نفسه ، في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص: 99.

مقال نشره سنة 1975م، بعنوان "المنطق والحوار (Logic et la conversation)"، وضّح فيه ظاهرة "الاستلزام الحواري"، وبيّن الأسس المنهجية التي تقوم عليها، من خلال تطوير مفهوم الدلالة الطبيعية، وقد انطلق في بحثه من أنّ النّاس قد يقولون في حواراتهم ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، ليركز في بحثه على إيضاح الاختلاف بين ما يُقال (Ce qui est dit)، وما يُقصد (Qu éntend-on) (ما تم تبليغه)، فقد أراد "غرايس" تقديم وصف ،وإقامة مَعْبَر بين ما يحمله القول من معنى صريح ،وما يحمله من معنى متضمن، فأوصله ذلك إلى ظاهرة "الاستلزام الحواري"[1]، ويتضح الأمر أكثر من خلال الحوار التالي:

الأستاذ (أ): هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

الأستاذ (ب): إن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

فقد لاحظ "غرايس" أننا إذا تأملنا الحمولة الدلالة لإجابة الأستاذ (ب) ،وجدنا أنها تدل على معنيين في نفس الوقت ،أحدهما حرفي والآخر مستلزم.

معناها الحرفي: أن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز، ومعناها الاستلزامي، أن الطالب المذكور ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة، هذه الظاهرة سماها "غرايس" بـ "الاستلزام الحواري" ويشترط "غرايس" لتحقيق الاستلزام الحواري أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار المعطيات الآتية:

- المعنى الحرفي للكلمات المستعملة، وتعريف العبارات الإحالية.
- مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه.

[1] ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 32، 33.

- السّياقان اللغوي، وغير اللغوي للخطاب.

- عناصر أخرى تتصل بالخلفية المعرفية.

- يجب على المساهمين في الحوار أن يكونوا على علم بالمعطيات الآنفة.[1]

وقد اقترح"غرايس" تنميط للعبارات اللغوية، حيث قسم الحمولة الدلالية إلى:

1–المعاني الصريحة: هي« المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل ما يلي:

– **المحتوى القضوي**: وهو «مجموع معاني مفردات الجملة ،مضموما بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.»

– **القوة الإنجازية الحرفية**: وهي «القوة الدلاية المعبر عنها بأدوات تصبغ الجملة بصبغة أسلوبية ما، كالاستفهام، والأمر، والنهي والتوكيد، والنداء، والإثبات... الخ.»

2–المعاني الضمنية: هي« المعاني التي تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، لكن للسّياق دور في التوجيه إليها».

– **معان عرفية**: وهي« الدلالات التي ترتبط ارتباطا أصيلا، وتلازمها في مقام معين كمقام الاقتضاء.»

– **معان تخاطبية** « وهي التي تتولد طبقا للمقامات التي تنجز فيها الجملة ،كالدلالة الإستلزامية.

وقد نظر "غرايس" فوجد أمن "الاستلزام"نوعان: "عرفي"و"حواري".»

– **عرفي**: قائم على« ما تعارف عليه أصحاب اللّغة، من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفظ عنها مهما اختلفت بها السياقات ،وتغيرت التراكيب ومن ذلك مثلا في الانجليزية "But" ،ونظريتها في اللّغة العربية

[1] العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص: 104.

"لكن"، فهي هنا وهناك تستلزم دائما أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقعه السامع مثل: زيد غني لكنه بخيل ومثل: (My freind is poor but honest).»[1]

– **حواري:** فهو «متغير دائما بتغير السياقات التي يرد فيها.»

ولقد كان ما يشغل "غرايس" هو كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر؟، ثم كيف يكون ممكنا أيضا ،أن يسمع المخاطب شيئا ويفهم شيئا آخر؟ وقد وَجد حلا لهذا الإشكال فيما أسماه "مبدأ التعاون" (Co-operative principle) بين المتكلم ،والمخاطب .وهو مبدأ حواري عام يشتمل على أربعة مبادئ (Maxims) فرعية هي:

1–مبدأ الكم (Quantity):

إجعل المساهمة في الحوار المطلوب دون زيادة أو نقصان.

2–مبدأ الكيف (Qality):

لا تتكلم ما دمت تعتقد أن كلامك غير صحيح، ولا تقل شيء ليس لديك عليه دليل.

3– مبدأ المناسبة (Relavance):

اجعل الكلام ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

4–مبدأ الطريقة (Manner):

«كن واضحا ومحددا: فتجنب الغموض (Obscurity)، وتجنّب اللّبس (Ambiguity)، وأوجز ورتّب كلامك .»[1] هذه هي المبادئ التي يتحقق بها التعاون بين المتكلم ،والمخاطب وصولا إلى حوار مثمر وينبغي هنا اللّفت إلى أمرين:

---

[1] ينظر: أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 33.

-إنّ "مبدأ التعاون" ليست له صلة بالواقع، لأنّ جميع النّاس في نظره متعاونين، صادقين، واضحين.وليس من الممكن أن يتحدث النّاس على هذا النحو دائما،بل أن أغلب أنواع الحوار البشري يخالف هذا المبدأ،فمقصد "غرايس" هو أنّ الحوار بين البشر يجري على ضوابط وقواعد يدركها كل من الخاطب و المتكلم.

-إن"غرايس" يدرك أن هذه الضوابط التي يجري عليها الحوار كثيرا ما تمتهك، فانتهاك هذه المبادئ هو الذي يولد الاستلزام .ولهذا يجب على المتكلم الحرص على إبلاغ المخاطب معنى بعينه.[2]

يقول طه عبد الرحمن: « قواعد التعاون كلها مردودة إلى المطالبة بوضوح المضامين.» [3]

-متضمنات القول (Les implicites):

مفهوم تداولي يهتم بدراسة الخطاب في جوانبه الغامضة وفي إطار السياق الذي يرد فيه وينطوي تحت هذا المفهوم: الافتراضي المسبق والأقوال المضمرة.

ج-الافتراض المسبق (Présupposition):

لقد أثار هذا المفهوم الدارسين والباحثين منذ مطلع القرن العشرين، حيث ظهر المصطلح لأول مرة من طرف الفيلسوف الألماني "فريجه" (Faridja) وهذا « بوصفه مشكلة من المشكلات علم الدلالة المنطقي المؤسس على الصدق، ثم أرسى مبادئ هذا المفهوم -فيما بعد- "ستراوسن" (Stterawsen) و هو أحد الفلاسفة

---

(1) أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 34.

(2) ينظر: نفسه ، ص: 35،36.

(3) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص: 242.

أكسفورد، ويشكل الافتراض السابق الخلفية الأساسية لإنجاح العملية التواصلية (التبليغية) حيث ينطلق المتخاطبون أثناء حواراتهم من معطيات وافتراضات تكون مشتركة ومعلومة لديهم، لا يصرح بها المتكلمون وإنما تكون محتواة في القول. » [1]

-ففي الملفوظ (1): مثلا:

(1)- أغلق النافذة.

-وفي الملفوظ (2):

(2)- لا تغلق النافذة.

في الملفوظين كليهما خلفية "افتراض مسبق" مضمونها أن "النافذة مفتوحة".

-مثال آخر: في مقام تواصلي معين، يقول الطرف (أ) في الحوار للطرف (ب):

(3)-كيف حال زوجتك وأولادك؟.

فالافتراض المسبق للملفوظ (3)،هو أنّ الطرف (ب)"متزوج وله أولاد"، وأن الطرفين (أ) و(ب) تربطهما علاقة ما تسمح بطرح هذا السؤال.[2]

يجيب الطرف (ب) بالملفوظ (4):

(4)-إنها بخير، والأولاد في عطلة، شكرا.

(1) ينظر: أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص:26.

(2) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص: 31.

ولكن إذا كانت الخلفية التواصلية غير مشتركة بين الطرفين، فإن الطرف (ب) يرفض السؤال أو يتجاهله فيجيب بأحد الملفوظات الآتية:

(4أ)- لا أعرفك.

(4ب)- لست متزوجا.

(4ج)- لقد طلقت زوجتي.[1]

- الأقوال المضمرة (les sous-entendus):

هي المعاني المتضمنة في الخطاب،والتي تحدد وفقا للسّياق الذي ترد فيه،يقول "أوركيوني" (Orkyoni): « القول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث»، ومثال ذلك: قول شخص في غرفة صديقه "أشعر بالبرد"، فالمتكلم هنا يقصد من وراء عبارته: أن الجو بارد بالفعل (المعنى الحرفي للعبارة)، وقد يريد من خلال عبارته أن:

- يثير انتباه صديقه لغلق النافذة، أو الباب إذا كانا مفتوحين.
- يلفت إنتباهه إلى إشعال المدفأة.
- أن يضع عليه آخر أو ما شابه ذاك.

وتبقى قائمة التأويلات لهذه العبارة مفتوحة، ومختلفة باختلاف السّياق الذي تردد فيه.[2]

---

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص: 31.

(2) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب ، ص: 32.

وقد ميز الباحثون في وقت مبكر من العقد السابع من القرن العشرين،بين نوعين من الافتراض المسبق: المنطقي (الدلالي) والتداولي، الأول مشروط بالصدق بين القضيتين، أما الثاني فلا دخل له بالصدق والكذب فالقضية الأساسية يمكن أن تنفى دون أن يؤثر ذلك في الافتراض المسبق.[1]

وإذا قلنا مثلا: "إن المرأة التي تزوجها عمرو كانت أرملة"،وكان هذا القول صادق، لزم صدق القول الأخر، وهو "عمرو تزوج أرملة"، أمّا الافتراضات التّداولية فهي غير مشروطة بقضية الصدق والكذب، فإذا قلت مثلا: "حقلنا كثيف الأشجار"، ثم قلت: "حقلنا غير كثيف الأشجار"، فعلى الرغم من التناقض الحاصل بين القولين فإن الافتراض الصادق هو: "أن لنا حقلا" لا يزال قائما، وعليه فإن لأي خطاب رصيدا من الافتراضات المسبقة، المستمدة من المعرفة العامة وسياق الحال.[2]

والافتراض المسبق له أثر في عملية التواصل، فنجاحها يتعلق بوجود خلفية مشتركة من الافتراضات المسبقة، وإخفاقها يؤدي إلى سوء التفاهم.

د–نظرية الملائمة:

هي مفهوم تداولي تأسس على يد كل من الباحث اللّساني الفرنسي"د.سبربر "(D.sperber) والبريطاني "د.ولسن "(D.Wilson)، « وتهتم هذه النظرية بمقولة المقام، حيث تقوم بتفسير الظواهر الكلامية وسماتها البنيوية في طبقاتها المقامية، وتعد في الوقت نفسه نظرية إدراكية لأنها تنتمي إلى العلوم المعرفية الإدراكية. »[3]

---

(1) ينظر: أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 27، 28.

(2) ينظر: جورج براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد الزليطني ومنير تركي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997، ص: 96.

(3) مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص: 36.

وقد اعتمد كل من "ولسن" و"سبربر" أثناء تأسيسهما لهذه النظرية ،على المبادئ التي أسس عليها "غرايس" مفهوم الاستلزام الحواري القائم على "مبدأ التعاون"، هذا الأخير محكوم بأربع مسلمات من بينها "مسلمة الملائمة" والتي تدعو إلى مشاركة المناسبة لموضوع الحديث، إلا أنّ هذه النظرية اختزلت تلك المسلمات في "مبدأ الملائمة"، واعتبرته محورا مركزيا لتأسيس هذه النظرية. (1)

ويُعد تعميما للتواصل الموصوف بـ "المناسب الاستدلالي" فهو:

أمّا المناسب فهو: « المتكلم يستعمل"المثير" (Stimulus) الأكثر ملائمة، لإبلاغ افتراضاته. »

أمّا الاستدلالي فهو: « المتلقي يستدّل على القصد الإخباري، انطلاقا من المؤشرات المسوقة من قبل المتكلم. »

فالتواصل في نظر "ولسن" و"سبربر"، يقوم على هذا الأساس، ويكون التواصل الاستدلالي المناسب بأن ينتج المتكلم مثيرا واضحا للمخاطب، فيصبو الأول إلى جعل مجموعة من الإفتراضات واضحة ،أو أكثر وضوحا لدى المخاطب. (2)

هـ–الاشاريات (Descis):

كان "شارل بيرس" (Charle Peirs) أوّل واضع هذا المفهوم، ففي كل اللّغات كلمات، وتعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على السّياق الذي تستخدم فيه، ولا يستطاع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، فإذا قرأت جملة متقطعة من سياقها مثل: سوف يقومون بهذا العمل غدا لأنّهم ليسوا هنا الآن، وجدتها شديدة الغموض، لأنّها تحتوي على عدد كبير من العناصر الإشارية ،التي يعتمد تفسيرها على السياق المادي ،والمرجع الذي تحيل إليه

(1) ينظر: نفسه ، ص: 36.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص: 38.

وهذه العناصر هي: (واو الجماعة، هم، هذا، غدا، الآن، هنا)، ولا يتضح معنى هذه الجملة إلاّ إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر.[1] ويذهب أغلب الباحثين إلى أنّ الإشاريات خمسة أنواع:

1-الاشاريات الشخصية:

أوضحُ العناصر الإشارية الشخصية،« ضمائر المتكلم (أنا)، أو المتكلم ومعه (نحن)، والضمائر الدالة على المخاطب. »

2-الاشاريات الزمانية:

هي كلمات تدل على« زمان يحدده السّياق بالقياس إلى زمان المتكلم، الذي يُعدّ مركز الأمر، فإذا قلت مثلا: "بعد أسبوع" يختلف مرجعها إذا قلتها: "اليوم"، أو"بعد شهر".»

ويلاحظ بعض الباحثين، أنّ بعض استعمالات اللّغة لا يستقل عن الإشارة الزمانية كالتحية (صباح الخير) ،فهي لا تقال إلاّ في الصباح، وتقع المفارقة إذا قالها أحد في المساء، وليس هذا مما تضبطه قواعد اللّغة بل أعراف الاستعمال.

3-الإشارات المكانية:

---

(1) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، ص: 80، 81.

هي عناصر إشارية يعتمد استعمالها وتفسيرها « على معرفة مكان المتكلم ووقت التكلم، ولا يمكن تفسير كلمات (هذا، ذاك، هنا، هناك...) ،إلا بالوقوف على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر، وسائر ظروف المكان. » [1]

4-إشاريات الخطاب:

هي الإشاريات التي « تحيل إلى ذات المرجع بل تخلقه، كما تدل عليه الصيغ التالية: (الفصل الماضي الرأي السابق، هذا النص، تلك قصة أخرى، مهما يكن من أمر، لكن، بل فضلا عن ذلك، قيل، من ثم ...الخ.»

5-الإشاريات الاجتماعية:

وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى « العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين،من حيث هي علاقة رسمية،أو علاقة ألفة، ففي الرسمية توظف صيغ التبجيل للكبار: كاستخدام (vous) في الفرنسية ،و(أنتم) في العربية، تبجيلا أو مراعاة للمسافة الاجتماعية،أو حفظا للحوار، و(نحن) للمفرد المعظم لنفسه، وهي تشمل أيضا الألقاب مثل: (فخامة الرئيس، جلالة الملك، سمو الأمير، فضيلة ...الخ . »

أمّا في الاستعمال غير الرسمي، فهو منفك من هذه القيود، وتدل بعض الإشاريات على طبقة اجتماعية مثل: (عقيلته، حرمه، زوجته، امرأته)، ويظهر من خلال هذا أنّ الإشاريات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التّداولية ،وعلم اللّغة الاجتماعي. [2]

و-الحجاج (L’argumentation):

---

(1) أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 16.

(2) أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر ، ص: 26.

يُعدّ "الحجاج" من أهم النظريات التي تهتم بها التّداولية ،إلى جانب نظرية "الأفعال الكلامية"، إذ يركز أساسا على دراسة طريقة وأسلوب المتكلم ،لتغيير ما يعتقده المتلقي، وإقناعه بالموضوع المراد إيصاله له.

إن نظرية "الحجاج" في اللّغة العربية تتعارض مع كثير من النظريات ،والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تُعد الحجاج منتميا إلى البلاغة الكلاسيكية "أرسطو"، أو البلاغة الحديثة "بيرلمان و تيتيكا" (Perlman) و(O-Tyteca)

وهذه النظرية وضع أسسها اللغوي الفرنسي "أزفالد ديكرو" (O.Ducrot) منذ سنة 1973،وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية، وبإمكانيات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مفادها: «أننا نتكلم عامة بقصد التأثير.» (1)

قد عرّف كل من "بيرلمان" و"تيتيكا" الحجاج في مؤلفهما "المصنف في الحجاج": «موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب،التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم.» (2)

تهدف نظرية الحجاج إلى تبيان أنّ اللّغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، وبعبارة أخرى، هناك مؤشرات عديدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها.(3) كما أشار أيضا كل من "بيرلمان" و"تيتيكا" إلى غاية "الحجاج" فيقولان: « غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها ،أو يزيد في درجة ذلك الإذعان

---

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص: 14.

(2) عبد الله صولة، نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص: 13.

(3) نفسه ، ص: 13.

فأنجع الحجاج ما وُفق في جعل حِدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السّامعين ،بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك به)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة. »

وتجدر الإشارة إلى أنّ لفظ الحجاج (L'argumentation) يطلق على العلم وموضوعه، أي على النّظرية وعلى المحاججة أيضا. [1]

وقد قسما "بيرلمان" و"تيتيكا" الحجاج إلى قسمين بحسب نوع الجمهور إلى:

1–الحجاج الإقناعي (L'argumentation persuasive):

وهو يرمي إلى « إقناع الجمهور الخاص (**L'auditoire Particuler**). »

2– الحجاج الإقتناعي (L'argumentation convaincante):

وهو حجاج يرمي إلى« أن يسلّم به كل ذي عقل، فهو عام.» [2]

كما ميّز اللّغوي الفرنسي "أزفالد ديكرو" أيضا بين معنيين للّفظ "الحجاج": المعنى العادي، والمعنى الفني/الإصطلاحي.

–الحجاج بالمعنى العادي:

[1] ينظر: عبد الله صولة، نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ص: 13.

[2] عبد الله صولة، نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 21.

يعني طريقة عرض الحجج وتقديمها، « ويستهدف التأثير في السّامع، فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعلا، غير أنه ليس معيارا كافيا، إذ يجب ألا تهمل طبيعة السّامع (أو المستقبل) المستهدَف من هذا الحجاج، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسّامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة في إقناعه.»

-الحجاج بالمعنى الفني:

فيدل هذا الحجاج على «صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب، والمدمجة في اللّسان ضمن المحتويات الدلالية.» [1]

تتسم الحجج اللغوية بعدة سمات، نذكر منها على سبيل المثال:

– سياقية:

فالعنصر الدّلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر، فإنّ السّياق هو الذي يصيره حجة، وهو الذي يمنحه طبيعته الحجاجية، أو قد تكون غير ذلك بحسب السّياق.

– نسبية:

فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها، وعبارة أخرى هناك الحجج القوية ،والحجج الضعيفة ،والحجج الأوهى، والأضعف.

– قابلة للإبطال:

(1) صبار الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2008، ص: 21.

وعلى العموم، فإنّ الحجج اللّغوي نسبي ومرن، وتدريجي، وسياقي بخلاف البرهان المنطقي، والرياضي الذي هو مطلق، وحتمي.

والعلاقة التي تربط بين الحجة والنتيجة هي التي تُدعى العلاقة الحجاجية، وهي تختلف بشكل جذري على علاقة الاستلزام الحواري ،أو الاستنتاج المنطقي.[1]

نخلص إلى أنّ "الحجاج" هو إقناع شخص بقضية ما، أو تزيد من شدة اقتناعه، وذلك لحمله إلى عمل أو تهيئته لذلك.

ي–القصدية /القصد (L'intention/L'intentionnalité):

تقف المقاصد بشكل عام ،وراء كل ما يقوم به الإنسان من أفعال، وتصرفات من أجل الوصول إلى أغراض،أو أهداف محددة، فقد يتردد الإنسان في إطلاق صفة الفعل على الشّيء،إذا لم يكن نتيجة لقصد الفاعل؛ وعليه فلا يسمى الفعل فعلا ما لم يصحبه القصد، وينطبق هذا على الفعل الذّهني أو الجسدّي، ولا ريب أنّ كل فعل من هذه الأفعال يأتي لتحقيق هدف معين.[2]

وعلى هذا الأساس يُعتبر القصد من المفاهيم الأساسية للتّداولية، حيث يسمى كذلك "المعنى التّداولي"، وتأتي أهميته انطلاقا من كونه يشكل الدافع الذي يبني عليه المرسل اتصاله ،ويتحدد على أساسه نجاح هذا الاتصال من عدمه، وذلك عند بلوغ هذا القصد إلى المتلقي، ومن ثم تأويله له فحسب "غرايس"

---

(1) ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 19.

(2) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 188.

فإنّ: «قصد المتكلم بإبلاغ شيء ما إلى المسّتمع يتحقق ويتحول إلى اتصال حقيقي عن طريق معرفة هذا القصد من طرف المسّتمع.» [1] وعليه تتحقق عملية التواصل عند فهم المسّتمع قصد المتكلم.

كما يقتضي الوصول إلى معرفة القصد ،إدراك جميع العناصر السّياقية التي ورد فيها، حيث يرتكز دور المقاصد بوجه عام على بلورة المعنى كما هو عند المرسل؛ إذ يستلزم منه مراعاة العناصر السّياقية الأخرى، وتكمن وظيفة اللّغة هنا في تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب، بما يناسب السّياق بجُمله ،فتتضح المقاصد بمعرفة عناصره. [2]

إلاّ أنّ "غريماس" (Greimas)،يرى بأنّ القصد هو الذي يبرر ويعلل عملية الإتصال، حيث يقول:« إذا أردنا فهم الاتصال كفعل (Acte) فإننا ندخل عموما مفهوم القصة (L'intention)، والذي يفترض به تعليله وتبريره.»

ومن جهة أخرى فهو يرى بأن هذا المفهوم قابل للنقد، وذلك من حيث أنّه يجعلنا ننظر إلى الإتصال حينئذ كفعل إرادي، وكفعل واع في الوقت نفسه، وهو الأثر الذي ليس عليه، بالتأكيد الإتصال دائما.

وعليه، فهو يُفضل استعمال «مفهوم القصدية (L'intentionnalité) من أصل فينومينولوجي بلا مواربة، والذي لا يشبه لا ذلك المفهوم الخاص بالتعليل ولا ذلك الخاص بالسّعي وراء غاية، فهو يشمل كليهما، كما يسمح كذلك بإدراك الفعل كشد ينضوي بين شكلين من الوجود: الإفتراضية والإنجازية .»[3]

---

(1) ينظر: نفسه ، ص 180.

(2) ينظر: نفسه ، ص: 180.

(3) ينظر، بوكلخة صورية، المصطلح الإعلامي العربي دراسة في للسانيات التداولية، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2008/2007، ص: 45، 46.

وتأتي أهمية المقاصد في الخطاب ،انطلاقا من أنّها الأساس الذي يبني عليه المرسل اختيار العلامات ،التي يستعملها داخل تراكيب ،وسياقات مختلفة لكي يحقق فعله التواصلي، فغاية قصد المرسل هي إفهام المرسل إليه، ويشترط ليعبر المستوى الدّلالي، وذلك بمعرفته بالعلاقة بين الدوال والمدلولات، وكذلك بمعرفته بقواعد تركيبها ،وسياقات استعمالها، وعلى الإجمال معرفته بالمواضعات التي تنظم إنتاج الخطاب بها. » (1)

ز–الوظائف التّداولية (les fonction pragmatique):

من أهمها ما تميّز به الدرس التداولي، تحديده لما يعرف بالوظيفة التّداولية للّغة، حيث تجاوز فكرة الوظيفة الوحيدة للّغة (التّواصل)، التي هيمنت زمنا طويلا، إلى تَعدد الوظائف، وأهمها أنّ اللّغة ذات وظيفة تأثيرية في السلوك الإنساني، وتنبني عليها تغيرات في المواقف والآراء.

إنّ فكرة تعدّد وظائف اللّغة نشأت مبكرا، قبل نضج الدّرس التّداولي، مع "رومان جاكبسون" (R.Jacobson) في مخططه المعروف للتواصل، وتنوعت مع دارسين آخرين نحو "بوهلر" (Buhler) و"هاليدي"(Halliday) وغيرها.

والوظيفة –لسانيا– حسب معجم "ديبوا" (Dubois) هي: «الدّور الذي تؤديه الوحدة اللّسانية [...] في البينة التركيبية للملّفوظ، ويُعدكل عنصر من الجملة مشاركا في معناها العام[...]».(2)

وفي معجم "جورج مونان" (G.Mounin) « تقوم وجهة النظر الوظيفية في تحليل لساني على وصف بنية لغة ما، والتي تعرّف قبل كل شيء بأنّها وسيلة تواصل [...]،وفي هذه الحال كل الوحدات اللّسانية والعلاقات المتبادلة بينها تحلل، وتوصف اعتداد بدورها (وظيفتها) في مؤسسة التّواصل.» (3)

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 183.

(2) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 118.

(3) نفسه ، ص: 118.

ومن خلال هذين التعريفين، يبدو أنّ تحديد الوظائف اللّغوية التي تكتنف البنى اللّسانية ،يقوم على أساس على فكرة التواصل، ببيان قيمة العنصر، أو دوره في الجملة، بعده واحدا من مكونات عناصر الإبلاغ العام ولذلك عُدّت الدّراسات الوظيفية نظريات خطاب، لا نظريات جملة؛[1]لأنّها تهتم بهذا العنصر بوصفه معطى ضمن سياق،ومقام معروفين، ويكتسب قيمته منهما، ويؤدي دوره خلالهما. ولعلّ أحسن من تناول قضايا الوظائف التّداولية في اللّغة العربية، هو "أحمد المتوكل "بما قدمه من تأليفات في الموضوع، ويرجع في أغلبها إلى ما عرضه "سيمون ديك" (Simone Dick) في نظرية النّحو الوظيفي وبحث مفاهيمها في اللّغة العربية أساسا. [2]

ولقد ذكر أنّ التواصل بوجه عام، يقتضي بنى متضافرة هي: البينة التّداولية التي يحكمها التواصل، وشروط الأداء ثم البنية المكونية، وتحددها العلاقات القائمة بين الوحدات اللّسانية للبنية، وتليها البنية الدّلالية التي يحدّدها مستوى تشكيل معنى الملفوظ سّياقا ومقاما. [3]

وتعرض هذه البُنى بشكل خاص وظائفها المنوطة بها، حيث تختص البنية التّداولية ببيان علاقة التخابر بين المتخاطبين في مقام ما، ويرتبط إسنادها بكم من المعلومات، ونوعيتها التي يَعتقد المتكلم توفرها عند المخاطب. [4]

ومهمة الوظائف التّداولية أن تحدد وضعية مكونات الجملة، بالنّظر إلى البينة الإخبارية المعلوماتية، في علاقة الجملة بالطبقات المقامية المحتمل أن تنجز فيها، فهي وظائف مرتبطة بالسّياق ،والمقام وبمدى إنجازها، في واقع التّواصل. [5]

---

[1] ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2001، ص: 25.

[2] ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 119.

[3] ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفية بين النمطية والكلية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2003، ص: 73.

[4] ينظر: نفسه، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ص: 109، 110.

[5] ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 119.

واستنادا إلى "سيمون ديك" جعلها "المتوكل" نوعين: داخلية وخارجية.[1]وتتسم الوظائف التّداولية الداخلية بكونها تستند إلى عناصر تنتمي إلى الجملة ذاتها، وتشمل وظيفتي"المحور"و"البؤرة". أما الوظائف الخارجية التّداولية فغير مرتبطة بعناصر الجملة؛ حيث تستند إلى مكونات خارجة عن الحَمْل، وتشتمل وظائف المبتدأ أو الذيل، وبذلك فمجموع الوظائف التّداولية حسب "سيمون ديك" أربع، ويضيف "المتوكل" وظيفة خامسة هي وظيفة "المنادى"، التي نعتبرها واردة بالنسبة لنحو كاف لا لوصف اللّغة العربية فحسب، بل كذلك لوصف اللّغات الطبيعية بصفة عامة...إلخ [2]

وفيما يلي سنقوم بتعريف هذه الوظائف:

1-الوظيفتان الداخليتان:

- وظيفة المحور:

وتستند هذه الوظيفة إلى « المكون الدال على ما يشكل المحدّث عنه (محط الحديث) داخل الجملة. والمحور هو الذات التي تشكل محطّ خطاب ما، أو الذات التي تشكل موضوع حمولة المعلومات الواردة في الخطاب نحو: متى رجع زيد؟ رجع زيد البارحة: يشكل (زيد) محور الجملتين، وهو محطّ الحديث فيهما، ويؤدي وظيفة المحور

[1] ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ص: 109، 110.

[2] ينظر: نفسه ، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1985، ص: 17.

بمقتضى الوضع التخابري، القائم بين المتكلم والمخاطب، في طبقة مقامية معينة (في الأول محور الاستخبار، وفي الثانية محور الإخبار). »[1]

-وظيفة البؤرة:

تستند هذه وظيفة أيضا إلى« المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية، أو الأكثر بروزا في الجملة. ولا تستند إلى الحمل ولا إلى حدوده، نحو: أغدا ألقاك؟ (أم بعد غد)، أو إنما زيد مسافر (غير موجود) »، ويقترح لها "المتوكل" قسمين:

بؤرة الجديد: ترتبط هذه البؤرة « بالمكون الحامل للمعلومة المجهولة لدى المخاطب لا المعروفة، ولا تدخل في القاسم الإخباري، المشترك بينه وبين المتكلم. »[2]

بؤرة المقابلة: ترتبط هذه البؤرة « بالمكون الحامل للمعلومة، التي هي محل شك، أو إنكار منم المخاطب.»[3]

2-الوظائف الخارجية:

-الوظيفة المبتدأ:

يحدد المبتدأ مجال الخطاب،« هو الذي يعتبر الحمل بالنسبة إليه واردا، مثل:(زيد، أبوه، مريض)، ومن خصائصه أنه يكون معرفة، لدى كل من المخاطب والمتكلم، وأن تكون إحاليته مرتبطة بالمقام؛ أي بالوضع

---

(1)أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ، ص: 17.

(2)ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية،ص: 17.

(3)أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية،ص: 17.

التخابري بين المخاطبين، فجملة (الشجرة تساقطت أوراقها) غير محيلة، لأن الشجرة محلاة بـ (ال)، فهي لا تقدم معرفة كاملة. »

-الوظيفة الذيل:

تُسند إلى المكون الدّال على الذَيل، « وهو الحامل للمعلومة التي توضح معلومة داخل الجمل، أو تعدّ لها أو تصححها، مثل: (أخوه مسافر، زيد ساءني زيد سلوكه، زارني خالد بل عمرو). ومن خصائصه أيضا الإحالية وهي مفهوم تداولي مرتبط بالمقام ،وبالوضع التخابري القائم بين المتكلم والسّامع بشكل خاص. »

-الوظيفة المنادى:

تُسند هذه الوظيفة إلى « المكون الدّال على الكائن المنادى في مقام معين، وينبغي التمييز بين النداء بعدّه فعلا لغويا، شأنه شأن الإخبار،أو الاستفهام،أو الأمر، وبين المنادى بعدّه وظيفة، أي علاقة تسند إلى أحد مكونات الجملة، فالوظيفة التّداولية مرتبطة بالمقام على نحو ارتباط وظيفة المبتدأ أو الذيل. » [1]

4- علاقات التّداولية:

[1] أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربي، ص: 17، 18.

تُعد التّداولية ملتقى غنيا لتداخل الاختصاصات بين اللّسانيين، والمناطقة، والسميوطقيين، والفلاسفة وعلماء النفس،وعلم الاجتماع وغيرها، فهي تتداخل مع الكثير من العلوم اللّسانية، والنظريات المعرفية، وسنذكر فيما يلي بعض التخصصات التي لها علاقة بالتداولية:

أ-علاقتها باللّسانيات واللّسانيات البنيوية:

عند الحديث عن العلاقة بين التّداولية وبين اللّسانيات،وتحديدا اللّسانيات البنيوية التي اعتمدت مبادئ "دوسوسير " (Dessusar) في دراسة اللّغة، يشترك الدارسون في قولهم: أنّ التّداولية تهتم بالكلام الذي هو غير اللّسان، المبعَد عن مجال دراسة علم اللّسان في نظر "دي سوسير"، وقد صرح بقوله: «اللّغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة.» واللّسانيات البنيوية تهتم أساسا بدراسة نظام اللّغة، دون الاعتداد بنية المتكلم ولا سياق الكلام، وغيرها من القضايا التي تطور الدرس التداولي في كنفها. »[1] والكلام عند "دي سوسير" نشاط فردي، وهو مطابق لمفهوم الأداء عند"تشومسكي"(Chomisky)؛ أي « الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقية.»[2] وعلاقة هذا الاستعمال بالأفراد الناطقين للغة يُعد من صميم البحث التداولي؛ ذلك أنّ التّداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتفوق على القدرات الإنسانية للتواصل البشري، وتصير التّداولية من ثم جديرة بأن تسمى "علم الاستعمال اللّغوي"، ولذلك اعتبرت التّداولية لسانيات كلام، في مقابل لسانيات اللّغة التي أرسى دعائمها "فرديناند دي سوسير" في محاضراته. [3]

---

[1] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 123.

[2] أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط8، 2008، ص: 210.

[3] ينظر: راوية حباري، الوظائف التداولية في مسرحيات "أحمد رضا حوحو" رسالة ماجستير في الآداب واللغة العربية، تخصص، اللسانيات واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014-2015، ص: 30.

غير أنّ ما ينبغي التنبيه إليه في هذا المجال، هو أن مفهوم "لسانيات الكلام" قد يحصر حدود التّداولية، ويُقوّض كثيرا من امتداداتها، فضلا عن أنّ الكلام ليس معزولا عن اللّغة إلّا افتراضا، فاللّغة لا تتحقق إلى على مستوى الكلام،وهي حاملة لخصائص كل من يؤديها؛أي أنّ الكلام مظهر من مظاهر تحقق اللّغة في المجتمع، وهنا تبرز العلاقة،بينهما مما يحتم اللجوء إلى دراسة متكاملة للظاهرة اللغوية ،ببعديها الاجتماعي والفردي، ولعل صعوبة التمييز بين ما هو تداولي، وما هو بنيوي واضحة هنا، وصعوبة التمييز بين التّداولية وجميع العلوم المعرفية أيضا.[1]

وقد أشار بعض الدارسين إلى صعوبة الفصل بين اللّسانيات والتداولية، فلقد أقرّ "فرانسوا لاترافارس"(F.Latravers) في كتابه "البراغماتية، تاريخ ونقد" « بصعوبة التمييز بينهما، وأول مظاهر تلك الصعوبة –في نظره- أنّ اللّسانيات علم يشتمل على عدد كبير من النظريات، والمذاهب المرتبطة، بما في ذلك التّداولية، فنظرية التركيب مثلا، يمكن أن تُعرّف إلى جانب بعدها التركيبي ببعدها التّداولي، اعتدادا بمعطيات اللّسانيات النّفسية ،واللّسانيات الاجتماعية ،وكذلك بالنسبة إلى المجالات الأخرى. »[2]

وما يمكن قوله في هذا المجال أنّ كلا العلمين متداخلان، فكل منهما بحاجة للآخر، وما يجعلهما مختلفين إنما هو منهج الدراسة، فالبنيوية تهتم بوصف اللّغة،باعتبارها مجموعة من القوانين المنتظمة بمعزل عما يحيط بها وهي بذلك تلغي خاصية اللّغة التواصلية الثانية، أمّا التّداولية فتهتم بدراسة اللّغة أثناء الاستعمال، مركزة في ذلك على دور اللّغة في عملية التبليغ بهدف التواصل ،ومن ثمة التأثير على متلقي الخطاب.

ب–علاقتها بعلم الدّلالة:

---

(1) ينظر: راوية حباري، الوظائف التداولية في مسرحيات أحمد رضا حوحو، ص: 30، 31.

(2) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 124.

تُعدّ كل من التّداولية والدلالة علمين مترابطين، لأنهما يشتركان في اهتمامهما بدراسة المعنى في اللّغة، إلا أنّهما يختلفان في العناية ببعض مستوياته. (1) فالدّلالة هو علم دراسة المعنى، أو هو فرع من فروع علم اللّغة، يدرس العلاقة بين الرمز اللغوي ومعناه. (2) فإنّ أجمعت هذه التعريفات كلها على أن موضوع علم الدلالة هو "دراسة المعنى"، وكانت التّداولية هي دراسة اللّغة في الاستعمال (Invise)، أو في التواصل (In interaction) لأنّه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول (Negotiation) اللّغة بين المتكلم والسامع ،في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما؛(3) أي أنّ التّداولية تدرس اللّغة على أساس أن الوظيفة الأساسية لها هي التواصل،والربط بين النظام اللغوي ،وكيفية استعمال هذا النظام، فاللّغة ما هي إلاّ وسيلة للتواصل الاجتماعي،وتحكمها ظواهر تداولية مرتبطة بالمقام، بمختلف الظروف المقامية التي تنجز فيها الجمل. (4)كما تدرس التّداولية اللّغة بعدّها كلاما محددا، صادرا عن متكلم محدد، وموجها إلى مخاطب محدد، بلفظ محدد، في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرض تواصلي محدد. » (5) فنلاحظ أنّ التّداولية تركز على استعمال اللّغة ،وهذا ما نجده في الدّلالة التي تركز اهتماماها على اللّغة ،من بين أنظمة الرموز باعتبارها ذات أهمية خاصة بالنسبة للإنسان. (6)

تمتاز عملية دراسة اللّغة من خلال التّداولية،بأنها تمكننا من التحدث عن المعاني التي يقصدها الناس وعن افتراضاتهم، وأهدافهم، وما يصبون إليه، وأنواع الأفعال التي يؤدونها أثناء تكلمهم (مثلا: تقديم طلب)، أما العائق

(1) ينظر: أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 10.

(2) ينظر: نفسه، ص: 14.

(3) ينظر: أحمد نحلة، آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، ص: 15.

(4) ينظر: راوية حباري، الوظائف التداولية في مسرحيات رضا حوحو، ص: 33.

(5) مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي، ص: 26.

(6) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1985، ص: 11.

الكبير، فيكمن في الصعوبة البالغة التي تبرز عند تحليل جميع هذه المفاهيم الإنسانية البحتة ذاتها، بطريقة متسقة وموضوعية، فقد نجد صديقان يتحدثان عن أشياء، ويستدلان على أشياء أخرى،دون وجود أي دليل لغوي واضح ،يمكننا أن نشير إليه على أنه المصدر الواضع لمعنى، ما أُريد إيصاله، ويبين المثال [1] هذه المشكلة: سمعت المتكلمين، وعرفت ما قلاه، غير أنني بقيت جاهلا بما تم إيصاله.

[1] هي: إذا- هل فعلت؟.

هو: طبعا- ومن لا يفعلها؟.

إذن، فالتّداولية مستساغة؛ لأنّها تتعلق بالكيفية التي يتمكن النّاس من خلالها فهم أحدهم لغويا، ولكنها قد تنقلب لتكون ميدانا دراسيا محبطا ؛لأنّها تتطلب منا فهم النّاس وما في عقولهم.(1)

على الرغم من التداخل بين التّداولية وعلم الدلالة، حتى أن بعض الدارسين من يَعدّ التّداولية امتدادا للدّرس الدّلالي، إلاّ أنّ "أوستين" قد ميز بينهما ،من خلال فكرة (الكفاءة والأداء) ،حيث يصنف علماء اللّغة علم الدّلالة ضمن القدرة (معرفة اللّغة)، أمّا التّداولية فتصنف ضمن الأداء ،والإنجاز ،واستخدام اللّغة، أو بمعنى آخر فإنّ الدّلالة تعالج معنى الجملة ،في إطار أدنى من الإشارة إلى المقام، بينما التّداولية تتولى المعنى ضمن المقام المحدد بالمعالم والمقاصد، وعليه فالتداولية تقوم على التبعية لعلم الدلالة، الذي يعرّف شروط المعنى وحقيقتها، وتهتم التّداولية بعد ذلك بدراسة هذه الشروط،حين تربط المعنى بالاستخدام، وتحدد ما يسمح بنجاح الملّفوظ، أو إخفاقه، وهذه أوّل نقطة تنفصل فيها التّداولية عن علم الدلالة ؛ لأنّ استخدام المعنى مختلف عن المعنى.(2)

(1) ينظر: جورج يول، التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010، ص: 20.

(2) ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 128.

وهذا الانفصال لا يعني الاستقلال التام القائم على الاستغناء؛ لأنّ المقولات التّداولية تبنى على المقولات الدلالية، كما أنه لا يمكن أن نحصر علم الدلالة في دراسة المعنى بعيدا عن المقام، والأصح أن الدلالة تعالج معنى الجملة،في إطار أدنى من الإشارة إلى المقام، بينما التّداولية اللّغوية تتولى المعنى ،ضمن إطار المقام المحدد لمعالم والمقاصد. (1)

ومن خلال ما سبق ذكره، يتبين أنّ التّداولية وعلم الدّلالة يتضمنان الكثير من الخصائص المشتركة، التي تبين بشكل علمي مدى ارتباط هذين العلمين، ذلك أن الدلالة تبحث في المعنى في السّياق القريب، بينما التّداولية تبحث في المعنى في السّياق البعيد الذي يرد فيه الكلام.

ج-علاقتها بالنحو الوظيفي:

تُعدُّ نظرية النّحو الوظيفي التي ظهرت في سبعينيات القرن الماضي، ثمرة من ثمرات الدراسة الوظيفية، وتقوم هذه النّظرية على النظر إلى الوظيفة الأساسية للّغة الطبيعية وهي التبليغ والتّواصل، فهذه النظرية لا تميز بين البنية اللّغوية بجميع مستوياتها الصّوتية، والصّرفية، والنّحوية، والدّلالية ،وبين الوظائف التبليغية التي تؤديها هذه المستويات الأربعة، فهي بعبارة أخرى تقوم بالتبليغ ،إلى جانب رصد خصائص العبارة البنيوية (الخصائص الصوتية ،الصّرفية، المعجمية ،التركيبية)،وخصائصها التّداولية، ورصد العلاقات التي تربط بين هذه المجموعة من الخصائص وتلك.(2)

(1) ينظر: نفسه، ص: 129.

(2) ينظر: يحيى بعيطش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الله بوخلخال، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005، ص: 80.

فالنّحو الوظيفي الذي يُعد أهم رافد للدّرس التّداولي، إلى جانب الفلسفة التي يشترك مع التّداولية في اهتمامه بوصف الكفاءة التبليغية للمتكلم ،والسّامع، وتفسيرها، بالإضافة إلى وصف،وتفسير الجوانب التّداولية المرتبطة بوظيفة التبليغ ،التي تؤديها اللّغة في تفاعلاتها مع المتخاطبين.(1) ومن هنا يتضح التداخل بين العلمين، فالوظيفة بمعناها العام تقابل مفهوم التّداولية، وهو ما ذهب إليه"سيمون ديك"حيث اقترح نظرية النحو الوظيفي التي تجمع بين مبادئها النحوية والمبادئ التّداولية.(2)

كما أنّ النّحو الوظيفي المقترح من طرف"سيمون ديك"في السبعينات، يجمع بين المقولات النحوية المعروفة،وبين ما عرضته نظرية أفعال الكلام، ولذلك يمكن القول أن النحو الوظيفي نظرية مُوسّعة، تكامل فيها النّحو، واللّسانيات ،والتّداولية، حيث إنّ"سيمون"اقترح أن يُدرج النّحو الوظيفي ضمن نظرية تداولية وُسعى، أو نظرية لغوية شاملة ،تجمع نظريات التّواصل اللّغوي المختلفة.(3)ما يمكن قوله هو أنّ اهتمام التّداولية بدراسة اللّغة،جعلها تلتقي مع مجموعة من العلوم، والتخصصات الأخرى ذات الصّلة المباشرة باللّغة.

---

(1) ينظر: نفسه، ص: 81.

(2) ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (الدار البيضاء)، المغرب، ط1، 1985، ص: 08.

(3) ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 127.

الفصل الثاني:تجليات التّداولية في البيان والتبيين

- المبحث الأول:التعريف بالمدونة وصاحبها

- المبحـــــث الثاني:المصـــــطلحات التّداوليـة في البيـان والتبييـن

المبحث الأول: في المدونة.

توطئة:

كل الكتب البلاغية القديمة كانت تنظّر للّسانيات التَّداوليّة، و لكن بمصطلحات بلاغية قديمة "كمفتاح العلوم للسكاكي"، "دلائل الإعجاز للجرجاني"، "سراج الأدباء و منهاج البلغاء"لحازم القرطاجني"، و لما نسقط ما وصلت إليه التَّداوليَّة اليوم سواء نظريات أم مصطلحات أم مبادئ، نجدها مبثوثة في ثنايا البلاغة القديمة بمصطلحاتها القديمة، و يتطلب البحث عمليات إسقاط: ما بين البلاغة القديمة، و التَّداوليّة البلاغة الجديدة.

يعتبر كتاب "البيان و التبيين" مهدا للتَّداوليَّة مصطلحا و نظريّا. و فيما يلي: إسقاط لمصطلحات "الجاحظ" في بيانه و تبيينه على مصطلحات التَّداوليّة، "فالبيان و التبيين"كتاب تداولي بلاغي في أبوابه، لما تعرَّض له "الجاحظ" بالدراسة و التَّحليل، فاهتم بالمتكلم، و بالمتلقي، و بالخطاب، و وسائل الخطاب و جماليته و أهدافه، و لم يغفل: المقام بنوعيه المقالي و السّياقي، كما عالج تداوليا: الصَّوت و الإشارة و غيرها من الأبحاث التي سنعرضها في الفصل الموالي.

1.التعريف ب"الجاحظ":

أ- مولده و نشأته:

هو أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي، المعروف بـ"الجاحظ" البصري العالم المشهور ولد في البصرة،[1]أمّا تاريخ ولادته لا يخلوا من الاضطراب على أنّ المتفق عليه أنّه ولد سنة 150هـ- 775م ويروى عن "الجاحظ":« أنا أَسَنُّ من أبي نواس بسنة، ولدت أول سنة خمسين و ولد في آخرها. » [2]

(1) ينظر: محمد كرد علي، أمراء البيان، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2012،ص: 309.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 16، حققه و ضبطه: عمر فاروق الطبّاع، مؤسسة المعارف للطباعة و النشر، لبنان، ط1، 1999 ، ص:52.

درج "الجاحظ" طفلا في كنف أبويه، و لم يلبث أن توفي والده و هو ناشئ صغير، فنشأ في كفالة أسرته الفقيرة التي كانت من سواد الشعب في البصرة، و لما ترعرع دخل الكتّاب في البصرة يتعلم فيه القراءة والكتابة شأنه شأن غيره من الأطفال، و بدافع الرغبة في العلم و الطموح إلى مستقبل كريم، والتعويض عن اليتم الذي عاش فيه، أقبل الطفل الصغير بكل قلبه، و جوارحه على العلم، و الدرس، و القراءة، وأخذ يتردد على حلقات العلم في مسجد البصرة الجامع يتلقى الفصاحة شفاها عن العرب في المربد. (1)

و كان "الجاحظ" بعد انتهائه من العمل اليومي، التعليمي، يذهب ليتعيَّش بكسب يديه فيبيع الخبز والسمك بسيحان بالبصرة (2).

فحياة "الجاحظ" كانت مقسمة بين طلب العلم، و طلب العيش و إن كانت هذه الظروف قد منعته عن إشباع رغباته من مجالس المربد، و من حلقات المسجد، إلاّ أنّها عوضته لما بلغه من منزلة راقية في الأدب وتفكير فيه فريد بين علماء عصره. (3)

وهكذا نجد أنفسنا في هذا الدور من حياة "الجاحظ"، لقاء بيئات مختلفة كونت شخصيته، فعلى الرغم من الفقر و الظروف القاسية التي ألمت بحياته، إلاّ أنّها كانت لها الأثر الفعّال و البليغ لما بلغه من العلم و المعرفة.

ب- مذهبه الاعتزالي:

كان "الجاحظ" منذ بداية عهده في الدرس و التحصيل يطالع كثيرا من كتب الفلسفة، و كان أكثر ميله إلى الفلاسفة الطبيعيين، فكان يروج لهم، و يخلط بعباراتهم، و قد شغف بالاعتزال و مضى يلازم أساتذته

(1) محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، دس، ص: 50،57.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص:52.

(3) محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص:56.

ويستوعب كل ما عنده، و صلة المعتزلة بالفلاسفة معروفة و مقرّرة، فكان كلما اشتهر معتزلي لزم حلقته، و كان من أشهرهم النّاظم الذي دفع "الجاحظ" دفعا للتزوّد من مذهبه الاعتزالي المعروف بالنّاظمية. [1]

اعتنق "الجاحظ" مذهب أستاذه النّاظم و غيره من أساتذة الاعتزال، بحيث أصبح له مذهبا مستقلا وطريقته الخاصة في الاعتزال عرفت بالجاحظية. [2] يُعدّ "الجاحظ" في رأي "ج ـدي بور" مؤرخ الفلسفة الإسلامية « أعظم رجل أخرجته لنا مدرسة النّاظم.» [3]

ومن مذهبه أن المعارف كلها ضرورية، و ليس فيها شيء من أفعال العباد، و إنّما هي طبيعية و ليس للعباد سوى الإرادة. [4]

ولقد أعطت الاعتزالية أثرها في كتابات "الجاحظ"، و العقل رائد "أبي عثمان" في تصديه لكثير من الإدعاءات في الدّين، و الاجتماع، و الحيوان، و غيره يقول "الجاحظ": « و لعمري إنّ العيون تخطئ، و إنّ الحواس لتكذب، و ما الحكم إلى للذّهن وما الإستبانة الصّحيحة إلاّ للعقل.» [5]

ج- ثقافته و شيوخه:

يعدُّ "الجاحظ" أكبر كاتب في العصر العباسي، فقد كان الثمرة الناضجة بكل الجهود العقلية الخصبة التي نهضت بها المعتزلة في عصره، و قبل عصره سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال، أو من حيث القدرة على توليد المعاني، أو من حيث الإمساك بزمام اللّغة في مادتها و أساليبها و طرائق التعبير عنها فكان كأنّه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد. [6]

(1) فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، 2005، ص:30.
(2) ينظر: نفسه، ص:30.
(3) عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2005، ص:17.
(4) ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية،م1، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د ط، 1983، ص: 476.
(5) كاظم حطيط ، دراسات في الأدب العربي، البيئة العباسية الجاحظ، ابن الرومي، و المتنبي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1977،ص:71.
(6) فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص:35.

و في هذا المجال يقول "ياقوت الحموي" : «كان أبو عثمان واسع العلم بالكلام، كثير التبحّر فيه شديد الضبط لحدوده، و من أعلم النّاس به و بغيره من علوم الدّين و الدّنيا، و هو عظيم القدرة في المعتزلة، و في غير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال و يميزون الأمور. » [1]

كان "الجاحظ" علاّمة عصره، فلم يترك مجالا إلاّ و كتب فيه، و لم يترك ظاهرة إلاّ و حلّلها و وضّحها بأمثلة و شواهد، فلم يكن أديبا فقط، بل كان أديبًا و شاعرًا و ناقدًا و إمامًا و فيلسوفًا، أمّا شغفه الكبير بالبحث و عكوفه الطّويل على الدّراسة، و المطالعة جعله من النماذج الفذّة على سعة الثّقافة و حسن الإدراك والذي يتأمل ما بقي من إنتاجه الهائل يزداد اقتناعا بأنّه من أجمع علماء العصر العباسي، فقد فتح على نفسه باب التنويع في معالجة المواضيع. [2]

و هذا ما أكده "علي بوملح" في كتابه "المناحي الفلسفية" حيث قال: « التفت في الجاحظ ثلاث مزايا الموهبة الأدبية الفضول العلمي، و الفكر النيّر، و لم يجتمع هذا لأحد على ما أعلم قديما و حديثا.» [3]

و يقول أيضا: «أربعة لم يَلحقوا، و لم يَسبقوا أبو حنيفة في الفقه، و الخليل في أدبه، و الجاحظ في تأليفه، و أبو تمام في شعره.» [4] "الجاحظ" هو المثقّف بالتّعدد و التّنوع، و ما نستطيع الإقرار به أنّ عمق

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص:56.

(2) ينظر: علي بوملح، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة، بيروت للطباعة و النشر، د ط، د س ، ص:63.

(3) نفسه، ص:63.

(4) محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص:185.

– في ميدان علوم اللّغة و الأدب و الشّعر و الرواية: أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي و الأصمعي، و أبو زيد بن أوسٍ الأنصاري و محمد بن زياد بن الأعرابي و خلف الأحمر و أبو عمر الشيباني و أبو الحسن الأخفش، و علي بن محمد المدائني.

– و في علوم الفقه و الحديث : أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضي و زيد بن هارون و السري بن عبد ربه و الحجّاج بن محمد حماد بن سلمة و غيرهم.

– في الاعتزال و علم الكلام: أبو الهذيل العلاّف و النّاظم و مويس بن عمران و ضرار بن عمر و الكندي وبشر بن المعتمر الهلالي و ثمامة بن أشرس النميري و أحمد بن أحمد حنبل الشيباني. (1)

و ثمة علماء آخرون لا تقل أهميتهم عن هؤلاء و "الجاحظ" ذاته لم يغفل عن ذكرهم.

د– آثاره:

وَرَّثَ أبو عثمان أمته، و أمم العالم، مؤلفات عديدة، قلّما نجد رجلا مثله في تعددية طاقاته، خَلَّف مثلها، و هذه التركة ثروة للناطقين بالضاد، و لوحة متقنة، مبدعة، صادقة، لصورة العصر الذي عاش فيه، طاولت عيناه كل شيء تقريبا، فلم يدع بابا إلّا ولجه، و لا موضوعا إلاّ طرقه. انقادت إليه اللّغة انقيادا، وأطاعته ألفاظها فأحسن قيادتها و تدبيرها. (2)

قد كانت غاياته نبيلة، و بواعثه نظيفة حميدة، فاعتبر الكتابة شيئا مستقلا عن الذات لا تابع لها. (3)

و قد قدّر "بِسْط بن الجوزي" مؤلفات "الجاحظ" بثلاث مائة و ستين مؤلفا، و ذكر " ياقوت الحموي " في معجمه مائة و ثمانية و عشرين مصنفا.

(1) ينظر: عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص:15.

(2) ينظر: محمد علي زكي الصبّاغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ، إشراف و مراجعة: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1998، ص:42.

(3) ينظر: نفسه، : 43.

و هذه بعض عناوين مؤلفاته: [1]

- كتاب الاحتجاج لنظم القرآن و غريب تأليفه و بديع تركيبه.
- كتاب آي القرآن.
- كتاب أحدوثة العالم.
- كتاب آل إبراهيم بن المدبّر في المكتباتية.
- كتاب الإخوان.
- كتاب الحيوان.
- كتاب البلاغة و الإعجاز.
- كتاب البيان و التبيين.
- رسالة التربيع و التدوير.
- رسالة في إثم السُّكْر.
- رسالة إلى أبي النجم و جوابه.
- رسالة في الأمل و المأمول.

إنّ مؤلفات "الجاحظ" كثيرة و متنوعة، منها ما نشر ومنها ما لم ينشر.

و قد ضاع معظم الكتب التي عرفنا أسماءها و لم يبق إلا القليل.

(1) ينظر: محمد علي زكي الصبّاغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ ص :45، 82.

هـ- منهجه العلمي:

انتهج "الجاحظ" في كتبه و رسائله أسلوبا بحثيا، أول ما يقال فيه إنّه منهج بحث علميّ مضبوط و دقيق يبدأ بالشك لِيُعْرَضَ على النقد، و يمر بالاستقراء على طريق التعميم و الشمول بنزوع عقلانيّ و واقعيّ، و هو في تجربته و عيانه و سماعه و نقده و شكه و تعليله، كان يطلُع علينا في صورة العالم الذي يُعْمِلُ عقله في البحث عن الحقيقة ، و لكنه استطاع برهافة حسه أن يصبغ على بحثه صبغة أدبيّة جماليّة تضفي على المعارف العلمية رواءً من الحسن و الظّرف، فيعكف على معطيات العلم ليسيغها في الأذهان و يحببها إلى القلوب، و هذه ميزة قلت نظيرتها في التراث الإنساني. [1]

و- تلاميذه:

عندما رحل "الجاحظ" إلى بغداد بعد أن جاوز الخمسين من عمره، و اتخذها مقاما له، و أنه تصدر للتعليم و المناظرة، فقصده طلاب العلم و العلماء من كل مكان.

وعلى الرغم من هذا فإن كتب التراجم – التي ترجمت له- لم تشر إلى تلاميذه، أو من أخد منه، إلاّ ما أشار إليه صاحب " أمراء البيان" ممن روى الحديث عن "الجاحظ"، كأبي بكر عبد الله بن أبي داوود السجستاني و محمد بن عبد الله بن أبي الدلهاب، و دعامة بن الجهم، و أبي سعيد الحسن بن علي العدوي، و أبي العباس المبرد، و يموت بن المزرع، و أبي العيناء محمد بن القاسم . [2]

ومن تلاميذه في اللّغة و الأدب و البيان، فلم تشر كتب التراجم إلى واحد منهم، إلا أبي خلف سلام بن يزيد الأندلسي، الذي ذكر "ياقوت الحموي" أنه جاء من الأندلس إلى المشرق للاستفادة من علم "الجاحظ" و

(1) ينظر: عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص:19.

(2) ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص:31.

أدبه. و يمكن أن نعد المبرد واحدا منهم، فليس من المعقول أن يأخذ عنه الحديث و لا يأخذ عنه اللّغة وصناعة الأدب.

ولعل عدم كثرة هؤلاء التلاميذ أو اهتمام كتب التراجم بهم راجع إلى فلسفة "الجاحظ" العلمية، حيث كان يرى في نفسه معلما، لا يميل أن يجلس تلاميذه بين يديه، و لكن يقدم إليهم علمه عن طريق كتبه. [1]

ي- مرضه و وفاته:

ظل "الجاحظ" منكبا على العلم و التأليف، ينتقل في سبيل ذلك بين بغداد و البصرة إلى أن أدركته الشيخوخة. [2]و كان ابتداء مرض "الجاحظ" في أواخر عهد الخليفة المتوكل على الله العباسي، أي في سنة 247هـ، و الظاهر أنه لم ينقطع عن الكتابة و التأليف طوال مدة مرضه، مما يدل على أنه كان على جانب عظيم من القوة البدنية، و قوة العقل. [3]

وظل على حاله مفلوجا ثمانية أعوام من سنة 247 هـ إلى 255 هـ، حتى وقعت عليه مجلدات الكتب التي اعتاد أن يضعها حوله قائمة كالحائط، فمات في المحراب الذي أحبه و بحر فيه طوال حياته.

و لما مات وصل نعيه إلى قصر الخلافة في بغداد، فأسف المعتز بالله عليه أشد الأسف، و قال ليزيد بن محمد المهلبي: يا يزيد، ورد خبر موت "الجاحظ"؟؟! فقال لأمير المؤمنين: طول البقاء، و دوام النعماء...! ! . [4]

و قد رثاه شاعر الدولة العباسية أبو شراعة القيسي بقوله: [5]

في العِلْم للعُلَمَاءِ إنْ يتَفَهَّمُوهُ مواعـظُ
وإذَا نسيت و قد جـمعت علا عليك الحافـظُ
و لقـد رأيـتُ الظـرفَ دَهْـرا ما حواهُ اللاّفـظُ

---

[1] نفسه،ص:31.

[2] ينظر: حسن السندوبي، أدب "الجاحظ"، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ط1، 1931، ص: 194.

[3] ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص:33.

[4] حسن السندوبي، أدب الجاحظ، ص:194.

[5] نفسه، ص:195.

حتى أقام طريقــهُ عمرو بْنُ بحرِ الجاحظ

ثم انقـضى أمـد بِهِ و هو الـرئيسُ الفائـظُ*

و نخلص في الأخير إلى أنّ "الجاحظ" هو مُنشئ البلاغة العربية، و أول من أرسى قواعدها الأساسية، فما أتى به لم يتوفر لأحد قبله، و رغم هذا لا يتوفر أي مؤلَّف يتناول نشاط هذا الرجل، على كثرة ما صنَّف في قضايا البلاغة و التعريف برجالها.

2-الكتاب البيان والتبيين:

يعدّ كتاب "البيان و التبيين" من أمهات كتب الأدب العربي و هذا الكتاب من أضخم مؤلفات "الجاحظ" و هو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم و قد أهداهُ إلى الوزير أحمد بن أبي داوود.

1- محتواه:

إنّ ما عرض له "الجاحظ" من موضوعات في كتابه "البيان والتبيين"،هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون، و هو من الموضوعات الرئيسية التي سيطرت على الكتاب الذي أسفر في تاريخ البلاغة العربية،من عمل "الجاحظ"،المتكلم و موجّه الفكر و الأدب العربيين، بعد قرون مند نهاية القرن الثاني الهجري.

الكتاب من أواخر مؤلفات "الجاحظ" الكثيرة،و قد قصد به التعريف بالبيان و البلاغة،و الخطابة فذكر محاسنها و مساوئها و شرح فنونها و ألوانها ،ثم يشير في حديث آخر إلى البلاغة،فيبين علاقة البلاغة بالشعر واللّسان و في الصّمت و في الكلام المسجّع، مستشهدا بأدلة من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف والشعر العربي القديم، ثم انتقل بعد ذلك للرّد على الشعوبية. مدافعا عن فصاحة العرب، كما تطرق إلى الكلام

*الفائظ: المائت، يقال: فاظ فلان، أي مات.

عن الزهد و النُسّاك و عن كلامهم و مواعظهم، كما أنّ الكتاب لم يخل من نوادر "الجاحظ" التي شملت بعض الحمقى و المجانين. [1]

فقد اعتمد "الجاحظ" في كتابه على أسلوب تحرر فيه من كل غموض و من التنميق اللفظي، مع المحافظة على جزالته، ثم مزج هذا الأسلوب ما تعلم و لما تعلم و لما سمع من كلام عن أحوال الناس. [2] لهذا نجد أن "الجاحظ"دعا الكتاب إلى العناية بتنميق اللفظ بحيث يحولون بين القارئ و تعميق الفكرة و التزامهم بالجد المفضل أحيانا إلى الغموض في عرض الفكرة، و تجميعهم للشواهد دون التركيز عن كشف النوازع الإنسانية.

2-لغة و أسلوب الجاحظ فيه:

أ-لغته:

لغة "أبو عثمان" في "البيان و التبيين" اللّغة التي يقتضيها العقل و يطلبها الأداء عن الحقيقة، فهو يرمي إلى الإفهام و بالتالي إلى استعمال الألفاظ، التي تفصح عن المعاني عن طريق الحقيقة، إلا أنّه أحيانا يميل فيها إلى الرمزية، بل إلى ضرب من التّورية، حيث يتجاذب اللفظ معنيان معنى ظاهر حقيقي غير مقصود في النص يمكننا إيراده على ذلك الوجه، و معنى خفي يحيل على لغة خاصة يبدو أنها كانت متداولة بين الأوساط الكلامية. [3] "فالجاحظ" ينظر إلى شيئين عند اختيار ألفاظه: الدقة و الموسيقى، و من ثم شاعت العذوبة في كلامه إلا أن تلك السهولة و تلك الدقة لا تخلو من غموض ينجم عن إلتباس الضمائر، فلا يُعرف إلى من ترجع لتعاقبها، و يعمد "الجاحظ" أحيانا إلى ألفاظ أعجمية و عامية مراعاة لمقتضى الحال. [4]

---

[1] ينظر: عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، دس، ص:139.

[2] عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، ص:139.

[3] ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1999، ص:63.

[4] حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت لبنان، ط2، 1991، ص:58.

وعلى حد تعبير "أحمد حساني"، يُعني باللفظ المختار العلامة اللسانية العرفية المتواضع عليها في المجتمع اللّغوي.

و مهما يكن من أمر "فالجاحظ" مصوّر بارع، يصور بجملة حسنة المعنى جميلة التأليف،و العناية الخاصة باختيار الكلمة التي تستوفي التعبير عن المعنى المقصود، و لا يستكشف عن استعمال التعابير الواقعية، و اللهجات العامية فالجاحظ بحرصه الشديد على الملائمة بين اللّفظ و المعنى، فهذا الحرص حمله على أن ينقل الكلام كما جاء على لسان أصحابه دون تغيير أو تبديل، حتى لو كان سخيفا، و قد بلغ هذا المذهب بأنه سخيف الألفاظ يشاكل سخيف المعاني، و أنه يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، و يكون أنفع من الكلام الجازل الفخم. [1] فلغته لغة تذكر الحقائق بأوضاعها دون زيادة أو نقصان، لا بسلسلة تصويرات أو تشبيهات أو ما إلى ذلك، و هو في كل ذلك رجل الواقع و العقل، لا يحيد عنهُ في أي حال من الأحوال. [2]

"فأبو عثمان" لم يكن ممن لا يراعي أهواء و مستويات و أحوال القراء، بل كان يراعي ذلك بكل عناية حتى تكون لغته لغة هادفة، و لها معنى، و هذا لا يعني أنه بأي حال من الأحوال ممن يحبون التصريع، لأنه في بعض الأحيان يعدل إلى لغة فيها شيء من الكناية.

ب– أسلوبه:

[1] ينظر : علي بوملح، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص:312.

[2] نفسه ، ص:583.

على حد تعبير أحد الباحثين، الذي يرى أنّ غموض أدب "الجاحظ" و بلاغته، يرجع في نظره إلى سوء التفاهم بينه و بين ناقديه، و سوء التفاهم هذا راجع بالدرجة الأولى، إلى الأسلوب الذي اختاره "الجاحظ" للتعبير به عن أفكاره، و هو أسلوب مبني على إيهام أو إزدواج معنوي على سبيل التوريه. [1]

لكن رغم هذا إلاّ أن "الجاحظ" ارتقى بالكتابة بعد "عبد الحميد الكاتب" و "ابن المقفع" فقد جمع محاسنهما، و زاد عليها خفة الروح و جمال العرض، كما أننا نلمس في مصنفه أسلوب التنوع بين الأسلوب العلمي المجرد، و الاسترسال في الاستطراد، والاستشهاد، والجد، ويعمد إلى الهزل في مواطن الجد. [2] و يعدل عن أساليب المجاز ما استطاع و إن عمد إلى شيء من التشبيه و الاستعارة، فما ذلك للزخرفة و الصنعة اللّفضية و لكنه لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة.

"فالجاحظ" كان يزاوج بين معنيين، حيث لا تتجلى هذه المزاوجة في الصياغة اللّفظية فحسب، بل حتى في تنشئة المعاني و تحريرها أيضا.

فدليل "الجاحظ" دليل ذو وجهين، وجه جعله للعامة، و وجه جعله للخاصة من النّاس، فهذا يدل على الاقتدار، و هذه سمة امتازت بها المدرسة الكلامية ذاتها. [3]

فأسلوب "الجاحظ" كما يتميز بالبعد عن التصنع و الغموض، فقد كان يرمي إلى الإفهام و الوضوح و الإبانة و ينحو نحو استعمال الألفاظ، التي تجلو الحقيقة و تقربها إلى الأذهان، يقول:« حسن الكلام قليله يغنيك عن كثيره، و معناه في ظاهر لفظه، وكأنّ الله -عز وجل- قد ألبسه من الجلالة، و غشا من دور الحكمة

---

(1) محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية عند الجاحظ، ص:62.

(2) ينظر :حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي و تاريخه، ص:583 582.

(3) ينظر:محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية، ص:62.

على حسب نية صاحبه، و تقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا، و اللّفظ بليغا، و كان صاحبه صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه مترها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة». [1]

فهو دائما يُعنى بصياغته بأدءًا بموادها من الألفاظ، فهي تارة ألفاظ جزلة رصينة، و تارة ألفاظ عذبة و لكل لفظة موضعها من الكلام، فقد كان يتجنب التعقيد و الإغراب في اللّفظ الفصيح المفهوم، و لكنّه مع ذلك لم ينحدر إلى اللّفظ المبتذل، و هكذا جاءت ألفاظه وسطا بين السُّوقي السَّاقط، و الغريب الوحشيّ. [2]
و قد عبّر عن هذا الأسلوب بقوله « و كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا و ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيًّا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشيّ من النّاس كما يفهم السُّوقي رطانة السُّوقي.» [3]

و في الأخير لابد أن نذكّر بأهم سمة تميز بها "الجاحظ" في أسلوبه في الكتابة، حتى غدا منهجا أصيلا في التفكير و التعبير، فهذه السّمة في أسلوبه التأليفي هي ظاهرة الاستطراد، و المبثوثة في العديد من مؤلفاته، فقد كان واعيا تمام الوعي بنوع طريقته في الكتابة، مؤمنا بجدواها، فمثلا نجد في "البيان و التبيين" إذا تكلم عن البيان بعد حديث طويل عن العجز و العيّ، وحال قريش في بلاغة المنطق مهّد لهُ بقوله": «كان في الحق أن يكون هذا الباب في أوّل هذا الكتاب، و لكن أخرناه لبعض التدبير.» [4]

وقد أدى ذلك إلى تكرار النصوص و الحديث عن الموضوع الواحد، في أكثر من موضع، و قد يكون التكرار في الباب نفسه، و قد يكون في الجزء نفسه، أو في جزء آخر منه، كالحديث عن البلغاء و أخبارهم والخطباء و مواقعهم، و الحمقى و نوادرهم، و مثال ذلك ما ذكره في باب « أن يقول كل إنسان على قدر خلقه

(1) الجاحظ، البيان و التبيين،ج2، تح :عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط7، 1977، ص:83.
(2) ينظر: علي بوملح، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص:312.
(3) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص:144.
(4) نفسه، ج1، ص:86.

و طبعه . » [1] عن "الزهري" عندما سئل ما الزهد في الدنيا قال : « ألا يغلب الحرام صبرك، و لا الحلال شكرك. » و قد كرر هذا القول عينه في الباب نفسه، دون أن تكون هناك ضرورة لهذا التكرار، و إذا كان قول "الزهري" ينصّب على تعريف الزهد، يتوقع أن يستشهد بهذا القول في باب الزهد الجزء الثالث، و هذا ما حدث حقا، وقد كان من الأفضل أن يحتفظ "الجاحظ" بهذه الصيغة في موضعه في باب الزهد، لكن الإستطراد قد أوقعه في هذا التكرار. [2]

3- تاريخ تأليف البيان و التبيين:

- تاريخ تأليف الكتاب:

يقول "عبد السلام محمد هارون" محقق الكتاب أن "الجاحظ"، ألفه في أخريات حياته، حيث علت به السن و قعد به المرض، و ذكر أنه ألفه بعد كتاب "الحيوان"، حيث عثر على نص قاطع في "البيان و التبيين" يدل على ذلك، و هو قوله: «كانت العادة في كتاب الحيوان، أن جعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقتطفات الأعراب، و نوادر الأشعار، و لما ذكرت عجبك بذلك، فأجبت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله . »

و يروي "ياقوت" على لسان "الجاحظ" قوله: « أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة آلاف دينار، و أهديت كتاب البيان و التبيين إلى ابن داوود، فأعطاني خمسة آلاف دينار... » [3] ،و بعد قتل "ابن الزيات"، جيء "بالجاحظ" مقيدا إلى مجلس "ابن أبي داود"، فجرت بينه و بين القاضي محاورة، انتصر

---

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1،ص:175.

(2) ينظر :عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، ص:144.

(3) ينظر : ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 16، ص:116.

فيها "الجاحظ"، و كان من عاقبتها أن رضي عنه "ابن أبي داود"، و أجازه و قربه إلى نفسه، و هذا الخبر يبين أن كتاب "البيان و التبيين" لم يظهر إلا بعد سنة 233 هـ، و هي السنة التي قتل فيها "ابن الزيات". [1]

المبحث الثاني: المصطلحات التّداولية في البيان و التبيين

1 – اكتساب اللّغة / اضطرابات تعدّد اللّغة : (Language bifucation)

إنّ اللّغويين العرب القدامى تحدثوا عن ظاهرة "اكتساب اللّغة"لأم والأجنبية، في موسوعاتهم العلمية وهذه الظاهرة من الموضوعات التي يهتم بها علم اللّغة النّفسي الحديث اهتماما بالغا في القرن العشرين. [2]

ومن بين هؤلاء الذين تحدثوا عن هذه الظاهرة خاصة عند الأطفال نجد "الجاحظ"حيث يقول: « والميم والباء أوّل ما يتهيأ في أفواه الأطفال، كقولهم: مَامَا وبَابَا، لأنّهما خارجان من عمل اللّسان،وإنّما يظهران بالتقاء الشفتين.» [3] فهذان الحرفان هما أوّل ما ينطقهما الأطفال عند اكتسابهم أصوات اللّغة، بالإضافة إلى "الألف" الذي ينطقونه لحظة ولادتهم، وأنّهما أسهل الحروف لديهم، لكونهما لا يحتجان إلى فعل اللّسان الذي يكون عادة ثقيلا عليهم في النّطق، وذلك في مستهل اكتسابهم اللّغة. [4]

وفي هذا الخصوص يقول كل من "جاس" و"سلينكر" **(Gas/Silecer)**: « عندما يبلغ الطفل ستة أشهر من العمر تقريبا، يبدأ بالتّحول إلى أصوات أكثر شبها باللّغة، والتي تُسمى بالبَأْبَأْة ،تتكون البَأْبَأْة غالبا من تتابعات من صامت فصائت مثل: بَا بَا بَا، دَا دَا دَا،ولاحقا بَادَا ومن الطبيعي أن يحمل الآباء والمربيات أصوات البَأْبَأْة المبكرة هذه على أنّها "كلمات"، مثلا كثيرا ما تُفسر الأصوات مَامَامَا على أنّها تعود إلى أم الطفل، وربما

---

[1] الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص:16.

[2] ينظر: جاس سوزان، ولاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية مقدمة عامة، ج1، ترجمة: ماجد الحمد، جامعة الملك سعود، الرياض، د ط، 2009، ص: 148.

[3] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 62.

[4] جاسم علي جاسم، علم اللغة التطبيقي في التراث العربي الجاحظ أنموذجا ، ص: 297.

تأمل الأمهات ذلك، في حين أنّها في الحقيقة ربما تكون ليست من أصوات دون معنى معين يرتبط بها. فالفاصل بين البَأْبَأة والكلمات الحقيقية عادة فاصل دقيق.» [1]

وعالج "الجاحظ" أيضا ظاهرة "اكتساب اللّغة الثانية"، في وقت متأخر من العمر، وتدعى هذه الظاهرة في اللّغة المرحلية أو الوسطى باسم "التَّحَجُرْ" (Fossilization)؛ وهو أنّ الكبير لا يستطيع أن يكتسب اللّغة الثانية بشكل صحيح مهما حاول ذلك، [2] يقول "الجاحظ": « فأمّا حروف الكلام فإنّ حُكمها إذا تمكنت في الألسنة خِلاف هذا الحُكم. ألا ترى أنّ السّنديّ، إذا جُلب كبيرا فإنّه لا يستطيع إلّا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عُليا تَميم، وفي سُفلى قَيس، وبين عَجز هُوزان، خمسين عاما. وكذلك النّبطيّ القُحُّ، خِلاف المِغلاق الذي نشأ في بلاد النّبط، لأنّ النّبطيّ القُحُّ يجعل الزاي سِنا فإذا أراد أنْ يقول زَورَق قال: سَورَق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أنْ يقول مُشْمَعِلٌ، قال مُشْمَئِلٌ، والنَّخاس يمتحن لِسان الجارية إذا ظَن أنّها رومية وأهلها يزعمون أنّها مُولّدة بأنّ تقول: ناعمة، وتقول: شمسٌ، ثلاث مرات متواليات.» [3]

ويُبين "الجاحظ" السّبب في عدم اكتساب النّطق السّليم اللّغة الثانية لأنّه: « متى ترك شمائله على حالهاولِسانه على سَجيته، كان مقصورا بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه".» [4] "فالجاحظ" يبين لنا تأثير اللّغة الأم بقوله مقصورا بعادة المنشأ، وهو ما يعرف في فرضيات التّحليل التّقابلي بالتّدخل من اللّغة الأم في اكتساب وتعلم اللّغة الأجنبية، أو الثانية في المراحل المتأخرة من العمر عند المتكلمين الأجانب. [5]

---

(1) ينظر: جاس سوزان، ولاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية، ج1، ص: 150.

(2) عبد العزيز العصيلي، التحجر في لغة متعلمي اللغة العربية الناطقتين بغيرها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ط1، 2006، ص: 352.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 70.

(4) نفسه، ص: 70.

(5) ينظر: جاسم علي جاسم، علم اللغة التطبيقي في التراث العربي، ص:297.

ويقول "القاسمي" هذا المجال: « أثبتت بحوث تربوية حديثة أنّ تعليم اللّغة الأجنبية في سن مبكرة يؤدي إلى إتقانها بصورة أفضل، وأنّ اللّغة الأجنبية لا تؤثر بصورة سلبية على معرفة الأطفال الصغار اللّغتهم القومية ولأنّها لا تعرقل تكوين المفاهيم والمدركات المعنوية لدى التّلاميذ الصّغار.» (1)

وفي دراسة حديثة استنتجا "جاس" و "سليكنر":« [...] أنّ قدرة المتعلمين الأكبر سنا على تعلم الأصوات بسرعة، خاصة الأصوات الفوق قطعية، تضمر أسرع كذلك، وقد دعمت هذه النتيجة بعدد من الدّراسات.» (2)

ويقول أيضا "باتكوسكي" (Patkowski): « [...] وُجد أنّ المتعلمين الذين اكتسبوا الانجليزية، بعد سِن البلوغ حصلوا على درجات أقل في الكفاية مما حصل عليه كل من المتكلمين الأصليين والمتكلمين غير الأصليين، الذين بدؤوا تعلم اللّغة الانجليزية قبل البلوغ[...].» (3)

2- وظائف البيان :

تتجلى جذور التَّداوليّة عند "الجاحظ" من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التَّأثيرية، التي تُمثل جانبا مهما في االتَّداوليات الحديثة، يقول "الجاحظ": أمّا بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان، اعتمادًا على كل ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسية هي:

أ- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية:(حالة حياد) الأمر على وجه الإختيار قصد الإفهام.

ب- الوظيفة التأثيرية: (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

ج- الوظيفة الحجاجية:(حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار. (1)

---

(1) علي القاسمي، اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى، ص: 63.

(2) جاس و سلينكر، اكتساب اللغة الثانية، ج2، ص: 519.

(3) جاسم علي جاسم، علم اللغة التطبيقي في التراث العربي، ص:298.

فكل هذه الوظائف تشكل جوهر النَّظرية التَّداوليّة في الدراسات المعاصرة، باعتبارها مقاربة تهتم بالتّواصل بالدّرجة الأولى، وتعرف بالتّواصل الوظيفي تحت عباءة النحو الوظيفي، الإقناع والتَّأثير وإيصال المعنى وتقديم الفائدة، ومنه فإنّ غايتها نفعية بحتة.

يقول " الجاحظ" :« المعاني القائمة في صدور النَّاس، المتصورة في أذهانهم، والمتغلغلة في نفوسهم [...]مستورة خفيّة، وبعيدة وحسية، ومحجوبة مكتوبة[...].لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه [...] إلاّ بغيره ،وإنّما يُحيِ تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها واستعمالهم إيّاها، وهذه الخصال هي التي تعود بها إلى الفهم وتحليها للعقل [...] وتجعل المهمل مقيّدا، والمقيّد مطلقا [...] وكلّما كانت الدَّلالة أوضح وأفصح كانت الإشارة أبْيَن و أَنْور كان أنْفع وأنْجح [...].» (2) ، فالمعنى المقصود يكون مجهزا لدى المتكلم آنفا وحين الاستعمال يبلغ حاجته بها ،مع نية التأثير.

3- صفات الخطيب:

أورد "الجاحظ" عدد من صفات الخطيب، حتى يكون مُقنعا بليغا، ومن ذلك ما ترجم من صحيفة هندية جاء فيها:« أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب، رابطَ الجأش، ساكنَ الجوارح، قليل مُتخيّر اللّفظ، لا يُكلم سَيِّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السُّوقة. » (3)

وفي النص السّابق يتضح لنا أنّ الغاية القصوى عند "الجاحظ" هي الخطاب الإقناعي، وتُقَدَمُ فيه الغاية الإقناع عن الوسيلة اللّغة، فالغاية هي التي تُحدد طبيعة الوسيلة بحسب المقامات والمخاطبين .

كما ركز "الجاحظ" في كتابه "البيان والتبيين" على عدد صفات الخطيب الجسدية والملكات الذهنية، ثم عرّج على هيئته من طُولٍ، وقِصرٍ، وحُسنٍ ،وكل ماله دور في إقناع المسّتمع ،وجدبه إليه قبل الإقناع باللّغة ،ومن

(1) محمد العمري، البلاغة العربية وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، د ط، ص: 293.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين ، ج1، ص:75.

(3) نفسه ،ص: 92.

ذلك ما أورده من قول "سهيل بن هارون" : « لو أنّ رجلين خَطبا أو تَحدثا، أو احتَجَّا و وصَفا، وكان أحدهما جميلاً جليلاً بَهيًّا، ولَبّاسًا نبيلاً، وذا حَسبًا شريفًا، وكان الآخر قليلاً قَميئًا، وبادَّ الهيئة دَميمًا وحاملَ الذِّكر مجهولاً ثم كان كلامهما في مقدارٍ واحدٍ من البلاغة، وفي وزنٍ واحدٍ من الصّواب لتصدّع عنها الجمع وعامتهم تَقضَى للقليل الدّميم على النّبيل الجسيم ،وللبادِّ الهيئة على ذي الهيئة، ولَشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه، ولصار منه سببا للعجب به، ولصار الإكثار في شأنه عِلة للإكثار في مدحه؛ لأنّ النّفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أبْأس.» [1]

اعتمادا على هذا نلاحظ أنّ "الفهم ولإفهام" بالمعنى التعليمي الهادف، ليس هو ما تعبر عنه هذه النصوص، بل الواقع أنّها نتيجة اتجاها إقناعيّا ممتدا بين قطبي الاستمالة والاضطرار، مع تداخل هذين المستويين خاصة في الوسائل المؤدية إليها يمكن اعتبار المنازعة والاحتجاج والحجة والدفاع وثني الأعناق والاضطرار بالحجة والتحريك وحل الحُبوة أجْلى صفات الاضطرار.

ويمكن اعتبار الإبانة، والوضوح، والدعوة، واستمالة القلوب، وميل الأعناق، وإسراع النّفوس، من أجْلى صفات الاستمالة هذا على وجه الإجمال، ذلك أنّ بعض المؤهلات والوسائل قابلة للاستعمال في هذا الاتجاه أو ذلك غير أنّ الذي ينبغي تأكيده هو أنّ المؤهلات التي رصدها "الجاحظ" والآثار التي توخاها تحسم في أمر العرض من بعض الوسائل التي تبدو محايدة مثل الفهم والبيان، والوضوح والصّحة، إنّها كلها وسائل موجهة للإقناع، واستمالة أو اضطرار. [2]

4- الصّمت/ الإنصات:

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين ، ج1، ص: 89.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 200.

تناول" الجاحظ" في "بيانه وتبينه" فكرة " الصّمت/الإنصّات" وقد أورد له بابا كاملا في الجزء الأول منه ويُعدُّ "الصّمت /الإنصات" أحد وجوه التواصل الذاتي عند المحدثين.

لقد دعى" الجاحظ" إلى الصّمت في مواضيع كثيرة في كتابه، ومن ذلك قوله: « أوّل العلم: الصّمت والثاني: الاستماع، والثالث: الحفظ، والرابع: العمل به، والخامس: نشره.» [1]

لا يقصد "الجاحظ" هنا الانقطاع عن الكلام بغير حاجة، بل يقصد به الإنصّات، وحُسن الإصغاء للمتكلم مما يُفيد صاحبه في العملية التواصلية على التفكّر والتدبّر، فإذا أراد السّامع أن يصل إلى درجة العلم بالشّيء فعلية بحسن السَّمع والإصغاء.

ويؤكد " الجاحظ" على "الصَّمت" في هذا الموضع، وهو يورد ما أوصى به " عبد الله بن الحسن" ابنه" محمدا" إذ قال: « أيْ بُنيَّ: إنّي مؤدٍ إليك حقّ الله في حُسن تأديبك، فأدِّ إليَّ حقّ الله في حُسن الاستماع [...] واستعن على الكلام بطول الفكر، في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى القول، فإنّ القول ساعات يضرُّ فيها خطأه، ولا ينفع صوابه.» [2]

نجد " عبد الله بن الحسن" يدعو ابنه إلى حُسن الإصغاء للتدبُّر والتفكُّر فيما يقال، كما ينصحه بطول الفِكر، والتَّأمل فيما يقول إذا أراد الكلام، وفي ذلك إشارة إلى الاستعانة "بالصَّمت والإنصَّات"، إذا أراد المرء أن يشارك غيره في الكلام.

كما أورد " الجاحظ" قول"محمد بن حفص" عن "الصَّمت": « كن إلى الاستماع أسرع منك إلى القول. » [3]، فهو يدعو المتكلم إلى ترتيب ما سيقول بعد أن يسمع قول مخاطبه، ففي هذا الترتيب للمعاني

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص: 198.

(2) نفسه،ص: 174.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين ج2، ص:290.

داخل النفس يحصل التواصل الذاتي، بل إنّ المولى عز وجل يأمرنا "بالاستماع والإنصّات" للتدبُّر والتفكُّر في آيات الذكر الحكيم، فقال:﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ،وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾ [1]

فالله تبارك وتعالى يدعوا إلى "الإنصّات" عندما يُقرآ القران الكريم، من أجل التدبُّر في نفس الإنسان، مما يؤكد حدوث التّواصل الذّاتي عن طريق الصَّمت الايجابي، ونقصد به "الصَّمت" الذي نكون فيه منصتين إلى غيرنا.

ويورد " الجاحظ" كلام" الحسن البصري" إذ يقول: « إذا جالست العلماء، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حُسن الاستماع، كما تتعلم حُسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه.» [2] "فالصّمت" وحُسن الإصغاء طريق إلى العلم.

وفي السّياق ذاته يورد " الجاحظ" قول أعرابي كان يجالس الشعبي فيظل الصّمت، فسُئل عن طول صمته فقال: « أسمع فأعلم، واسكت فأسم.» [3]، وهذا مما يدل على أنّ أوّل سبيل العلم الصّمت، الذي يكون فيه صاحبه منصتا للمتكلم، متدبِّرا في قوله، وفي موضع آخر يدعوا" الجاحظ" إلى الصّمت وتفضله على كثرة الكلام حيث نقل كلام"الهيثم بن صلاح" لابنه وكان خطيبا: « يا بُنيَّ، إذا قَلَّلت من الكلام أكثر من الصَّواب، وإذا أكثرت من الكلام أَقْلَلْتَ من الصَّواب.» [4] يدعوا هنا"الهيثم" ابنه إلى الصّمت، لأنّ كثرة الكلام تُوقع في الزَّلَل

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 205/204.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين ج2، ص: 291،290 .

(3) الجاحظ، البيان والتبيين ج1، ص: 194

(4) نفسه، ص: 264.

والخطأ، فالصّمت طريق إلى الصّواب، وفي نفس السّياق يقول"لقمان" لابنه:« أيْ، بُنيّ، إنّي قد ندمت على الكلام، ولم أندم على السُّكوت.» (1)

ونخلص مما سبق أنّ" الجاحظ" قرن الصَّمت بالاستماع، ليبين فائدة الصَّمت حينما يكون بغرض الإصّغاء فالمستمع الصّامت في أغلب الأحيان، إنّما ينصت إلى محدثه، ويجري عمليات تواصلية داخل ذاته، وهو يفكر في الرَّد عليه، أو ما يمكن أن يضيفه إلى ما يسمع من قول، (2) وهذه العملية الذاتية التي يقوم بها السّامع المنصت تتحول فيها بعد إلى تواصل بين طرفين خارجيين. (3)

5- مقتضى الحَال:

من الأفكار التي جسدت المفاهيم التَّداوليّة في النّصوص التراثية، نجد فكرة " مقتضى الحال" وهو ما يعرف عند الدارسين المحدثين "بالسّياق"، فمن بلاغة الكلام مطابقته لما يقتضيه الموضوع، أو الموقف الذي يقال فيه، أو لما تقتضيه حال السّامعين أيّا كانت.

و"الجاحظ" في طليعة من لاحظوا واهتموا بفكرة "مقتضى الحال"، حيث تجلى ذلك في كلام "بشر بن المعتمر"، إذ يقول: « [...] ومن أراد معنى كريم فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حقّ المعنى الشّريف اللّفظ الشّريف ومن حقّها أن تصونهما عمّا يفسدهما ويهجنهما[...] وإنّما مدار الشّرف على الصّواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال.» (4)

---

(1) نفسه، ص:269. ،.

(2) ينظر: جاسم على جاسم، علم اللغة التطبيقي في التراث العربي، الجاحظ، أنموذجا،دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد:40، الجامعة الأردنية، العدد:2،2013 ص: 30

(3) ينظر: نفسه، ص: 302.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 136.

فشرف المعنى يستلزم شرف اللّفظ، فإن كان قصد المتكلم إيصال المعنى الشّريف للسّامع، فعليه أن يختار اللّفظ الشّريف، وذلك لما فيه من فائدة للسّامع، مع مطابقة اللّفظ للحال، إذ أنّه لكل مقام مقال، فينبغي أن ينتقي المتكلم اللّفظ المناسب للمقام الذي يتكلم فيه.

كما يتحدد "مقتضى الحال" في موضع آخر أشار إليه من خلال كلام "بشر بن المعتمر" الذي يقول: «وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما. ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يُقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويُقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار السّامعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلما تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنّه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا، أو مجيبا أو سائلا ،كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذا كانوا لتلك العبارات أَفهم ،وإلى تلك الألفاظ أَمْيَل، وإليها أَحَن وبها أَشغف[...].» (1)

وعليه فعلى المتكلم أنّ يراعي المسّتمع وحالاته، فيختار الألفاظ التي من خلالها يفهم المسّتمع قصد المتكلم من كلامه، فإذا كان للموضوع المتحدث عنه ألفاظ اصطلاحية خاصة، فإنّ مطابقة الكلام لمثل هذا الموضوع يقتضي، عدم استعمال هذه المصطلحات إلاّ فيه خاصة.

ونجده قد جاء بكلام "أبو الأشعت" في قوله: « رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ متخيّر اللّفظ لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السُوقة، ويكون في التّنقيح، ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب [...] ويكون الاسم له فاضلا ولا مَفضولا، ولا مُقصرا، ولا مُشتركا ولا مُضمنا [...] ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحَملُ عليهم على أقدار منازلهم [...].» (2)

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 139.

(2) نفسه، ص: 93.

ومن ثم وجب على المتكلم أن يراعي في كلمة حال المسّتمعين، ومنه فالكلام يختلف باختلاف الموقف والظروف التي يحدث فيها الكلام، وهذا ما نجده ينطوي تحت فكرة "مقتضى الحال" الذي يهتم "بالمقام" بنوعية "السّياقي" والمقالي".

وكان "الجاحظ" دقيق النّظر في أساليب العرب، وطرق الإلقاء الشّعري خاصة المختلفة عندهم، كثير النّظر في أثر الصّور البلاغية في الكلام، دائم الرّبط بين مناسبة القول للمقام، وطبقات النَّاس، [1] وهو القائل: «كما لا ينبغي أن يكون اللّفظ عَاميًّا وسَاقطًا سوقيًّا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غَريبًا وحشِّيًا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعربيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي، من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسمج والخفيف والثقيل وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا [...].» [2]

فالمتكلم من خلال هذا يراعي طبقات المسّتمعين أثناء حديثه، فالكلام الوَحشّيّ يفهمه المسّتمع الوَحشّيّ والكلام السُّوقيّ، يفهمه المسّتمع السُّوقيّ، فالنَّاس طبقات وعلى المتكلم أن يجعل الكلام طبقات، فلكل طبقة من النَّاس طبقة من الكلام، وهذا مراعاة للموقف والحال، فنجد من الكلام ما هو جَزَل، وسَخِيف، وحَسَن...الخ.

لقد أشاد "الجاحظ" بتفسير "ابن الفقع" للبلاغة، حتى قال أنه: « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط.» [3] فإنّه يبرز قوله في وجوب المطابقة "لمقتضى الحال"، وما يجب لكل مقام من مقال، لتحقيق صفة البلاغة في الكلام وذلك في قوله: « إذا أعطيت لكل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك، من رضا الحاسد والعدو، فإنّه لا يرضيهما شيء، وأمّا الجاهل فلست

[1] ينظر: عزيز الخطيب، الإعجاز البلاغي في القرآن، دراسة تحليلية عند فخر الدين الرازي، دار قتيبة، سوريا، ط1، 2011، ص:95.
[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 114.
[3] نفسه ، ص: 115.

منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله.»[1] فالمتكلم البليغ هو الذي يطابق كلامه السّياق الذي يتحدث فيه.

ويذهب بعض الكتّاب المعاصرين إلى أنّ دائرة المطابقة "لمقتضى الحال"، أوسع بكثير من الدائرة التي حدّدها البلاغيون، وقالوا في تعريفه إنّه: « العلم الذي يبحث في مطابقة الكلام لمقتضى الحال »، والواقع أنّ دائرة المطابقة "لمقتضى الحال" أوسع من هذه الدائرة بكثير، ولا تقف عند المباحث الثمانية التي ذكروها في علم المعاني:

هذه المباحث هي:

- أحوال الإسناد الخبري.
- أحوال المستند إليه.
- أحوال المستند.
- أحوال متعلقات الفعل.
- القصر.
- الإنشاء.
- الفصل والوصل.
- الإيجار والإطناب والمساواة

فإنّ مجالات هذه المطابقة كثيرة.[2]

إنّ هذا الرّأي ليس بجديد في ميدان الفكر البلاغي "فالجاحظ" فضلا عن تنبّهه إلى كثير من المباحث التي ذكرها العلماء في علم المعاني، فإنّنا نجده قد تنبّه إلى مجالات أوسع للمطابقة من هذه المباحث التي حُدّدت في علم المعاني، ونذكر منها:

أ – مطابقة اللّفظ بمعناه:

اللّفظ هو أساس العبارة، وهو الوحدة التي يتكون منها الأدب، والأديب أعلم النَّاس بااللّغة التي يُعبِر بها

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص: 116.

[2] ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص: 179.

وأقدرهم على استعمال ألفاظها، واختيار اللّفظ المطابق لمعناه، [1] وفي هذا المجال يقول "الجاحظ": « ومن علم حق المعنى، وأن يكون الاسم له طِبقا، وتلك الحال له وِفقا، ويكون الاسم له لا فَاضلا و لا مَفضولا، ولا مُقصِرا ولا مُشتركا ولا مُضمّنا، ويكون ذلك ذكرا لما عَقد عليه أوّل كلمة، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارد ويكون لفظه مونقا، ولهول تلك المقامات مُعاودا.» [2]

فالمتكلم عليه أن يختار الألفاظ التي توافق المعنى الذي يريد إيصاله إلى السّامع وتطابقه، ولا تكون مشتركا لفظيا، أو ترادفا...الخ

ب – مطابقة اللّفظ لموضوعه وما جاوره:

مطابقة اللّفظ الغرض المراد معالجته، فاللّفظ الذي يصلح في غرض من الأغراض قد لا يصلح في غرض آخر. [3] فيقول "الجاحظ" في ذلك: « قد يستخف النَّاس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحقّ بذلك منها. ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى- لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع[...] والنَّاس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسّلامة [...] ولفظ القرآن الذي نزل عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضيين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضيين، ولا السّمع أسماعا والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحقّ بالذكر وأولى بالاستعمال.» [4]

فلا بد من حدوث المطابقة بين اللّفظة المستعملة، والغرض الذي سبق من أجله الكلام، وهو في حديثه عن "المطابقة" لم يغفل أن يعرض لطائفه من الكلام خرجت عن دائرة "المطابقة"، فعُدت ساقطة في أنظار المتذوقين

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ،ص: 180.

[2] نفسه، ص: 93،92.

[3] ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص:180.

[4] الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1، ص: 20.

وخرجت عن دائرة البلاغة" [1] ؛إذ يقول أحد الشعراء الذين مدحوا النبي صل الله عليه وسلم بعد سماعه لهذين البيتين:

وبُورِكَ قبْر أنتَ فِيهِ وبُورِكْتَ بِهِ ولو أهلٌ بذلك يثربُ

يعني قبر الرّسول صل الله عليه وسلم، ويثرب المدينة.

فقال: لَقد غَيَّبُوا بِرًا وحَزمًا ونَائِلاً عَشِيَّةً واراه الصَّفيحُ المنصَّبُ [2]

فهذا الشّعر الذي رواه لا تصلح معاينة ولا ألفاظه في مقام مدح الرّسول صل الله عليه وسلم، إذ أنّه يصلح في عامة النَّاس.

وقد ذهب "الجاحظ" في سبيل مطابقة الكلام لمقتضى الحال، إلى حد جعله يدعوا إلى اللّحن ومجانبة الإعراب، إذا اقتضى المقام ذلك، ويظهر أنّ هذا الأمر قد شغل باله كثيرا لأنّنا نراه يشير إليه في كتبه أكثر من مرة، فيقول في كتابه"الحيوان" : « وأنا أقول أنّ الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أنّ اللّحن يفسد كلام العرب، لأنّ سامع ذلك الكلام إنّما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللّغة وتلك العادة، فإذا على هذا الأمر- الذي إنّما أضحك بسُخفه. وبعض كلام العجمية فيه- حروف الإعراب والتحقيق والتّثقيل، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب لفظه، وتبدلت صورته.» [3]

"فالجاحظ" يدعوا من ينقل نوادر المولدين، أن ينقلها كما هي بلحنها وعُجمتها، ولا يخضعها لقواعد الإعراب، وإلاّ تغيّر معناها وتبدلت صورتها. ومرة ثانية يقول: « ومتى سمعت حفظك الله- بنادرة من كلام العرب فإيّاك أن تحكيها إلاّ مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنّك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخارج كلام

---

(1) ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص: 181.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص: 239،240.

(3) الجاحظ ، الحيوان،ج1، تح، هارون عبد السلام، دار الكتب المصرية، مصر، د ط، 1993، ص: 282.

المولّدين و البلديّين،خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ومُلحة من مُلَح الحُشوة والطُّغَام، فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخيّر لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فِيك مخرجا سَرِيًا، فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أُريدت له، يُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها .» (1)

وتجدر الإشارة هنا إلى حقيقتين: الأولى أنّ ما أورده "الجاحظ" هنا ليس مقصورا على موضع النّوادر والمُلح فقد ذكرها على سبيل المثال فقط، وإنّما القصد العام عنده هو ضرورة رعاية المطابقة بين الكلام ومواضعه.

والحقيقة الثانية: أنّ ما ذكره عن لغة النّادرة أو الحكاية، إنّما هو من وحي تجربته الذّاتية وملاحظته الشخصية لأنّ "الجاحظ" كما نعلم من أرباب الأسلوب السّاخر وصُنّاع الفكاهة في الأدب العربي، فهو أدرى من غيره بالخصائص الأسلوبية التي تتطلبها طبيعة النّادرة أو الطُرفة الأدبية، لتعطي أقصى ما تملك من إمتاع وإضحاك. (2)

من خلال ما سبق ندرك أنّ "الجاحظ" قد ركز في العملية التواصلية على "المقام"، ومطابقة الكلام "لمقتضى الحال"، يمكن تحديده "مقتضى الحال" عنده في النقاط التالية:

- موازنة أقدار المعاني بأقدار السّامعين.
- موازنة أقدار المعاني بأقدار الحالات.
- الموازنة بين الألفاظ وأقدار المستّمعين.
- معرفة المقامات والتفريق بينهما، واختيار المعاني والألفاظ حسب المقام شكر، تهنئة...

ويمكن تقسيم "المقام" إلى قسمين: خارجي وداخلي.

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص: 145.

(2) ينظر: عبد العريق عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، د ط، 1970، ص: 79.

- **الخارجي**: وهو كل ما هو خارج ذات المتكلم وعناصره هي:

1- المتلقي:

* طبقته العلمية والفكرية، والاجتماعية والسّياسية...الخ.

* ردود أفعاله: وتشمل الرفض، والقبول...الخ.

2- وسيلة الاتصال: ويقصد بها االلّغة، والوسيلة هي المشافهة كتابة.

3- السّياق العام: ويقصد به السّياق الاجتماعي والسّياسي...الخ.

4- طبيعة الموضوع: قد تكون سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ويراعى في ذلك المتلقي. [1]

ب – الداخلي: ويراعى فيه مقاصد المتكلم، وقد تكون سابقة أو طارئة. [2]

---

[1] ينظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008، ص: 132،135.

[2] جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال،ص:132، 135.

ويمكن تجسيد هذا التقسيم في المخطط التالي:

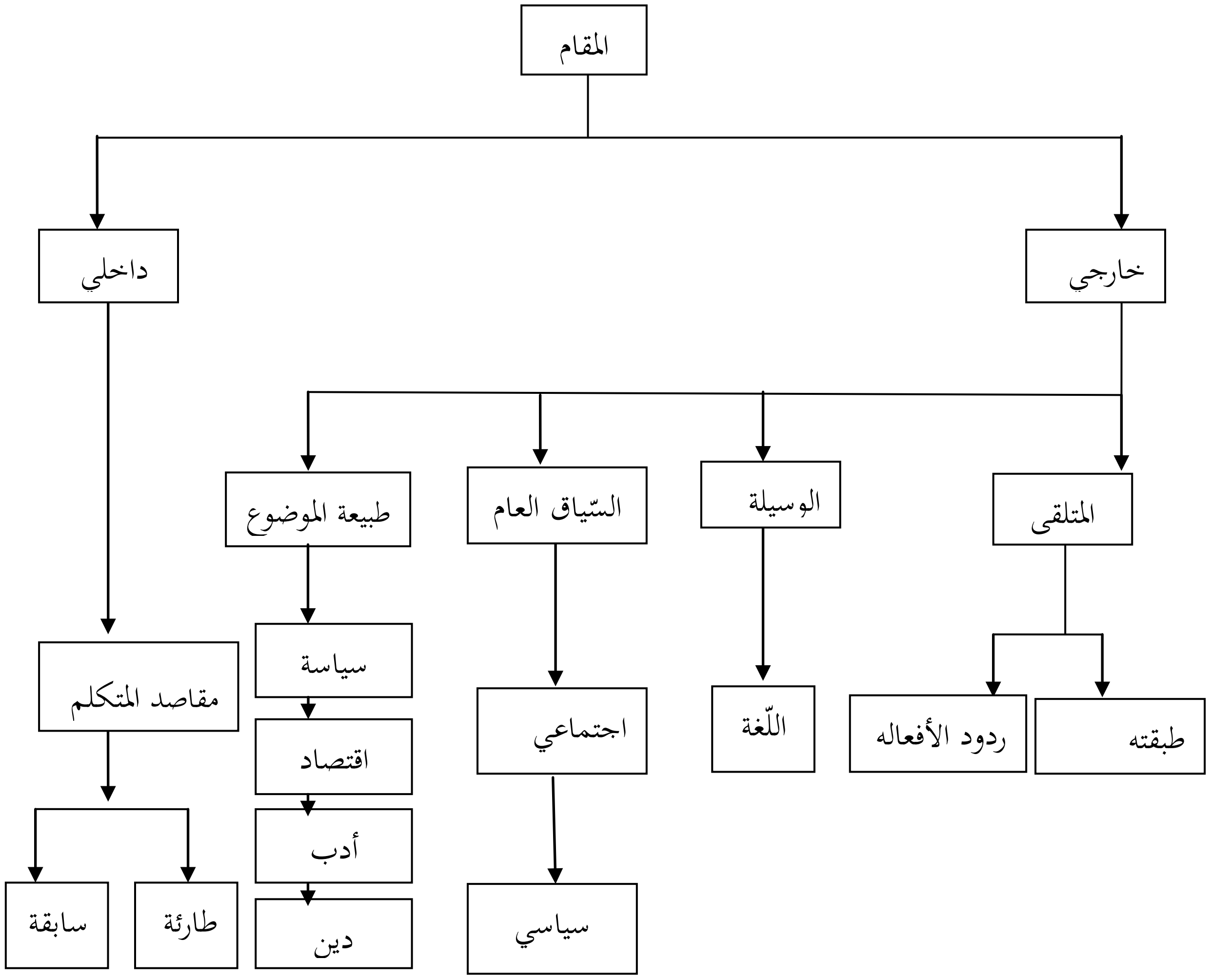

مخطط أقسام المقام [1]

جسدت فكرة" مقتضى الحال" في النصوص التراثية، إحدى مفاهيم التَّداوليّة، والذي يعرف "بالسّياق". وهذا ما أشار إليه "صلاح فضل" بقوله: « ويأتي مفهوم التَّداوليّة هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة، المساحة التي كان

(1) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال،ص:133.

يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال. »[1]

وتتجلى التَّداولية من خلال هذه الفكرة في مطابقة الكلام للموقف الذي ، قيل فيه، ومختلف الظروف التي حدث فيها هذا الكلام ، و"الحال" هو نفسه "المقام" عند البلاغيين، فهم يرون أنّ البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، و"المقام" هو مناسبة الخطاب للموقف الذي قيل فيه، فكل من التَّداولية وفكرة مقتضى الحال يهتمان بالعملية التواصلية بين المتكلم والمستمع.

وهذا ما دهب إليه المتحدثون في تعريفهم "للمقام"، إذ يقول "ديكرو: « إنّنا نسمي مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ الخطاب في وسطها[...] ويجب أن نفهم من هذا المحيط المادي، والاجتماعي، الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء[...] وإنّنا لتعرف التَّداوليّة- غالبا- بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة.» [2]

فالتَّداولية من خلال قول " ديكرو" تراعي "المقام" الذي قيلت فيه العبارة، لأنّ "المقام" مهيمن على معناها بحسب الغرض المقصود في ذلك المقام ، وتلك الظروف التي قبلت فيها، كما ركز كذلك على هوية المتخاطبين فلا بد لكل متكلم أن يعرف مستمعه، ويعرف مكانته الاجتماعية والسّياسية، لأنّ العبارة تتباين بتباين المقام وتباين مكانة وصفة المسّتمع، فظ الواحد منا بكلمة (قسم) في الثانوية، ونطق بنفس اللّفظ في الجامعة أو المستشفى لتغيّر المعنى بحسب المكان. فلفظ (القسم) في الثانوية يقصد به حجرة الدراسة، أو مجموعة تلاميذ ينتمون إلى مستوى

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب الأدبي وبلاغة النص، ص: 26.

(2) أورفالدو ديكرو وجان ماريسشايفر، مقام الخطاب، مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: مندر عياشي المركز الثقافي العربي المغرب، ط2007،2، ص: 677.

معين وشعبة معينة مثل: قسم ثالثة آداب واحد، أمّا في الجامعة فتعني المعهد الذي ينتمي إلى الكلية مثل: قسم اللّغة والأدب العربي، وفي المستشفى فنجدها بمعنى جناح مثل: قسم الجراحة، قسم الولادة...الخ.

من خلال ما سبق ذكره نستنتج أنّ "مقتضى الحال"/ "المقام" يضم كل ما يحيط بالعملية التواصلية من ظروف مكانية، والموقف الذي يصدر فيه الحدث الكلامي، إضافة إلى المتكلم والسّامع معا.

6- السياق و المقام :

إنّ "الجاحظ" من الأوائل الذين تفطنوا للدّور الذي تلعبه الملابسات والظروف الخارجية، التي تحف بظاهرة الكلام كالمتكلم ،والسّامع، وظروف المقال، فقد تحدث المفسرون قديما عن أهمية العلم بأسباب النّزول في القرآن الكريم ، وأفردوا له بابا بالتأليف للكشف عن الغموض الذي يكتنف بعض آيْ القرآن، فقد قال "ابن دقيق العيد": « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن ، وقال"ابن تيمية" " معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.» [1]

وقال "الواحدي":« لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها» [2] لذلك ركز زعماء اللّغة على ما هو منطوق، فتعرضوا للعلاقة بين المتكلم وما أراده من دلالة، والسّامع وما فهمه من الرسالة وكذا الأحوال المحيطة بالحديث الكلامي، "فالجاحظ"كان له اهتمام كبير بهذه الحيثيات التي تصنع خطابا ذا معنى فتفطن لها ودعا إليها يقول في ذلك:«.فكن في ثلاث منازل، فإنّ أوّلى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا قريبا معروفا، إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، إمّا عند العامة إن كنت للعامة أردت ،والمعنى ليس يشرف على الصَّواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال وكذلك اللّفظ العاميّ والخاصّ. فإنّ أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف

---

(1) السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دط، دس،ص: 61،62.

(2) نفسه،ص:61،62.

مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهِّم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدّهماء، ولا تجفوا عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.» [1]

من خلال النص السّابق" يمكننا القول بأنّ "الجاحظ" كان يركز على الكلام المنطوق، ليس في هذا النص فحسب فهنالك نصوص أخرى تثبت صحة ما سنذهب إليه، فهو عندما يقول: « أن يكون لفظك رشيقا.» هذا يعني وبكل وضوح أنّه يتكلم عن الكلام المنّطوق، حيث اشترط له شروطا حتى يكون مفهوما وله دلالة عند السّامع، واضعا في الحسبان الطبقة التي يتواصل معها، فالخاصة من النّاس لها ألفاظ خاصة، والعامة من النّاس لها ألفاظ خاصة بها أيضا، فالمعنى عنده لا يشرف ولا يتضح بالخاصة أو العامة، إنّما شرفه مرهون بالصّواب وإحراز المنفعة، كما يجب أن يتفق مع الظروف الخارجية التي أوجدت هذا الخطاب دون غيره كما، أنّه دعا إلى من تحلى بصفة الاقتدار على توصيل معاني الخاصة إلى العامة فله ذلك، شريطة أن يكسو تلك المعاني ألفاظا واسطة بعيدة عن كل غموض فذلك من تمام بلاغة المتكلم.

إنّ عبارة "الجاحظ" الفارطة الذكر- لكل مقام مقال- هي عبارة شهيرة عبارة تصدق على دراسة المعنى في كل االلّغات لا في اللّغة الفصحى فحسب، فهي تصلح للتطبيق على كل الثقافات على حد سواء فمالينوفسكي"(Malinowski) لم يكن يعلم وهو يَصوغ مصطلحه الشهير (Context of stuation) أنّه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها. [2]

---

[1] الجاحظ، البيان وتبيين، ج1، ص: 136.

[2] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2004، ص: 372.

فالمعنى الدّلالي في بعض الأحيان لا يتضح بمجرد النّظر إلى المعنى- المقال- فلا يمكننا بأي حال من الأحوال تناسي أو نسيان-المقام- لأنّ المقام يعتبر عاملا مهما في تحديد محتوى الرسالة. وكلما وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحا. [1]

لأجل ذلك أصبح من الضروري على المتكلم أن يعرف من يخاطبهم من حيث الميولات، والتكوين الثقافي وما إلى ذلك، كما يجب عليه أن يعرف أقدار المعاني من إطناب وإيجاز، فهذا "بشير بن المعتمر" أوصى المتكلم: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدر المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. » [2]

ليس هذا فقط "فالجاحظ" لم يراع حال المخاطب فحسب بل تنبه إلى شيء آخر في غاية الأهمية، راعى أيضا حال المتكلم، فهو يرى أنّهما متساويان في صُنع خطاب حقيقي له معنى ولهذا قال: « المفْهِم والمتَفَهِم عنكَ شريكان في الفَضلِ إلاّ أنّ المفْهِم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم، هكذا ظاهر هذه القضية وجمهور الحكومة [...]. » [3]

إنّ علاقة العلامة االلّغوية بالمجتمع علاقة تجعلنا ندرك أنّ للعلامة بنمطها السّيميائي، ذات فضاء ليس من السّهل إخضاعه لثنائية الدال والمدلول؛ لأنّ العلامة في أساسها تتسم بديناميكية وحركية وبالأحرى، فهي انزياحية وتكتسب دلالتها من الحيز الاجتماعي [4]، وبالتالي كل فئة اجتماعية تتميز برصيد علاماتي معين يتطلب منّا أن

---

[1] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ص: 346.

[2] الجاحظ، البيان التبيين، ج1،ص: 138،139.

[3] نفسه، ص: 11،12.

[4] ينظر، قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات في العالم البصرية العالم ، ط1، 2008 ص:78.

نخاطبها به، وهذا نفهمه من خلال قول " الجاحظ" التالي: « وكلام النّاس في طبقات ، كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل، والسّخيف، والمليح، والحسن، والقبيح، والسّمج، والخفيف، والثقيل، وكله عربي وبكل قد تكلموا، و بكل قد تمادحوا وتعايبوا، فإنّ زعم زاعم أنّه لم يكن في كلامهم، تفاضل، ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلما ذكروا العيّ والبكيء والحصَر والفخَم الخطَل، [...]والمكثار والهمَار، ولما ذكروا الهُجر والهَذَر والهذيان والتخليط، وقالوا رجل تلقاعة وتلهاعة، وفلان يتلهيع في خطبته، وقالوا فلان يخطئ في جوابه، ويحيل في كلامه ويناقص في خبره، ولولا أنّ هذه الأمور قد كانت تكون بعضهم دون بعض لما يسمى البعض والبعض الأخر بهذه الأسماء . » [(1)]

فعلى المتكلم أن يكون كلامه مع أحد أصدقائه، فهذا مقام وذلك مقام، ولكل مقام مقاله الخاص به، لأنّه من واجب المخاطب أن يعطي كل مقام حقّه من سياسة وحذاقة حتى يعطي مقالا له دلالة بالنسبة للمسّتمع. [(2)] فهذا عبد "القاهر الجرجاني" ذهب مذهب " الجاحظ" إلى ربط الكلام بسياقه الإبلاغي الذي يقال فيه، وأنّ لا ننظر إلى حُسن التركيب، أو وجه من الوجوه بل علينا أن ننظر إلى المقام، وهذا ما سماه البلاغيون بمقتضى الحال أو الاعتبار المناسب يقول القزويني":«[...]فإنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التذكير يباين مقام التعريف ومقام الإطلاق يباين مقام التقييّد، مقام التقديم بيان مقام التأخير، ومقام الذكر بيان مقام الحذف، ومقام لمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعد مطابقته بمقتضى الحال، هو الاعتبار المناسب، وهذا يعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشّيخ عبد القاهر بالنّظم.» [(3)]

إنّ مصطلح "مقتضى الحال" السّابق الذكر اهتم به علماء المعاني و"الحال" عندهم يعدل على"مقتضى الحال" يقول "التهانوي": « والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص، -أي

(1) الجاحظ ،البيان و التبيين، ج1.ص:144،145.

(2) ينظر، نفسه ، ص: 116.

(3) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الجيل بيروت، ط3، 1993، ص. 44.43.42.

الداعي إلى أن يعتبر من الكلام الذي يؤدي له أصل المعنى، خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضى تأكيد الحكم ،والتأكيد مقتضاها[...] وعلى هذا النحو قولهم –علم المعاني- علم يعرف به أحوال اللّفظ العربي، التي بها يطابق اللّفظ مقتضى الحال- أي يطابق صفة اللّفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذِكر إلى غير ذلك معللة بالأحوال. » [1]

ها هو "الجاحظ" يؤكد على الضرورة التقيد "بمقتضى الحال" من طرف المتكلم حتى يكون كلامه مفيدا يقول: « ومن عِلمِ حقّ المعنى أن يكون الاسم له طِبقا، وتلك الحال له وِفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا، ولا مفضولا ،ولا مُقصّرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون مع ذلك ذاكر لما عقد عليه أوّل الكلامه، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقا، ولهول تلك المقامات معاودا، ومدارُ الأمر على إفهام كل قوم مقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم[...] » [2]

يبدو أنّ "للجاحظ" معرفة واسعة بالدّور الذي يكتسبه سياق المقام"الحال" في إنتاج الوحدات اللّسانية وفق نظام لغوي تركيبي له معنى، فهده النّظرة نجدها عند "فيرث"(Ferth) الذي يرى: « أنّ إنتاج الملّفوظات اللّسانية تتم في إطار سياق الموقف الاجتماعي و الثقافي، وذلك يبرز المتكلم- المسّتمع- اللّغة دوره وشخصيته في البيئة اللّسانية المتجانسة.» [3] فقد اعتمد في تحليله اللّغوي على سياق المقام مركزا على كل ما يتصل به من ظروف وملابسات.

وعليه يمكن القول بأنّ "الجاحظ" قد أعطى أهمية كبيرة للسّياق الخارجي الذي يسهل على السّامع والمخاطب دون أن لا ننسى القارئ في فهم الخطاب، سواء كان منطوقا أو مكتوبا، كما أنّه اهتم بالسّياق اللّغوي

(1) التهانوي محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج2، ص: 125.

(2) الجاحظ،البيان والتبيين، ج1، ص: 93.

(3) حساني أحمد، مباحث في اللسانيات، الجزائر،دط،دس،ص:154.

مثلما لاحظنا ذلك أثناء حديثنا عن علاقات التخييّر والتأليف التي دعا إليها، حتى يكون الكلام وفق نظام سلس وسياق لغوي متميز، وما يترتب على ذلك من دلالات مختلفة، ليس فيه من التكلّف والصّنعة شيء.

فهذا"سيبويه" (Sibawayh) كان من الذين اهتموا "بسياق الحال"كما يسميه بنفسه ،وعناصره المكونة له كالمتكلم، والمخاطب، والعلاقة الموجودة بينهما ،و موضوع الكلام وأثره والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي وغيره من العناصر غير اللّغوية المصاحبة للكلام. ومثال ذلك اهتمامه ببيان العلاقة بين المتكلم والمسّتمع وما ينتظره المخاطب من المتكلم، فالمتكلم إذا قال: «كان زيد-فانّ المخاطب- إنّما ينتظر الخبر[...] وإذا قال المتكلم: كان حليما فإنما ينظر- أي المخاطب-أن تعرفه صاحب الصفة.» (1)

إنّ نجاح العملية التّواصلية لها علاقة كبيرة بحسن الكلام، ولن يكون ذلك إلاّ إذا كان المتكلم ملما بالعناصر اللّغوية ،وغير اللّغوية التي دعا إليها "الجاحظ"، والحال أو المقام أحد هذه العناصر التي لها الحظ الأوفر في ذلك الحدث الكلامي، فالمعنى الدّلالي لا يمكن أن يتضح بمجرد النّظر إلى المعنى"المقال" فحسب وعليه "فالمقام" يعتبر عاملا مهما في تحديد مضمون الخطاب، وبنائه سواء كان منطوقا أو مكتوبا.

7- أنواع العلامة عند الجاحظ:

- دلالة اللّفظ:

وردت "دلالة اللّفظ" في تصنيف "الجاحظ" لدّلالات أو في نظرية البيان على المفرد أو المركب (2)، دون الفصل بينهما جاء كلامه عليهما عاما وأكثر تجريدا، وهذا لم يخص بدلالة اللّفظ فحسب بل بأصناف الدّلالات

(1) الجاحظ،البيان والتبيين، ج1، ص:47. 48.

(2) ينظر: عمار طالبي، اصطلاحات الفلاسفة، المؤسسة الوطنية للكتابة، الجزائر، د ط، 1983، ص:80،81 .

عموما، كما أنّ "الجاحظ" كان من المهتمين "بدلالة اللّفظ"، فهو يرى أنّ الإنسان حديث. فإذا فقد هذه الخاصّية كان ناقصا. [1]

بالإضافة إلى أنّ صاحب "البيان والتبيين" أدرك أنّ الصّوت آلة اللّفظ فلولا الصّوت لما ظهر اللّفظ ولَما سمعناه، كما اهتدى إلى فكرة التقطيع ووظيفة الصّوت في تحديد الوحدات الدالة، وهو تصور يقترب من "أندري مارتيني" (Andre Martini) لوظيفة الصّوت في عملية التّقطيع والتّأليف، يقول "الجاحظ": « الصَّوت هو الآلة اللّفظ والجوهر الذي يقوم به التّقطيع، وبه يُوجد التأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظا، وكلاما موزونا،ولا منثورا، إلاّ بظهور الصّوت ،ولا تكون الحروف كلاما إلاّ بالتّقطيع والتّأليف. » [2]

إنّ اللّغات في العالم لها نفس الخصوصية والميزة، كونها محدودة الحروف ومجموعها يؤلف لنا مجموعة منتهية من الألفاظ، وأسماء المعاني، [3] كما يسميها "الجاحظ". أمّا المعاني فهي متعددة إلى غير نهاية، وهذا ما نجده في قول "الجاحظ": « حُكم المعاني خِلاف حُكم الألفاظ، لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة» [4]، لذلك كانت اللّغة عاجزة عن توفير اسم لكل معنى، وعليه كان الاستعمال المجازي للألفاظ أمرا ضروريا.

لقد أدرك "الجاحظ" بفضل عقله النّير، أنّ أداة التعبير عن الضمير هي اللّسان، إذا يُشبِّهه في وظيفته بالتُرجمان، الذي يحول المعاني وينقلها من عالم الغيب، إلى عالم الشهادة، ولذلك كان « اللّسان أداة يظهر بها حُسن البيان وظاهر يُخبر عن الضمير، وشاهد ينبئك عن غائب.» [5] وبالمقابل يشبه القلب بالخزانة، التي تحفظ

---

[1] الجاحظ أبو عثمان، رسائل الجاحظ، تح، محمد عبد السلام هارون م 1، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص: 160.

[2] ينظر: أندري مارتيني، مبادئ في اللّسانيات العامة ،تر: سعدي الزبير، دار الأفاق، ص: 19،18.

[3] الجاحظ،، البيان والتبيين ج1، ص: 76.

[4] نفسه، ص: 76.

[5] نفسه، ج2، ص: 75.

الأسرار وتصونها وتختزن ما يعيه المرء بالحواس، من خيرٍ أو شرٍ وما تولده الأهواء والشّهوات، وما تنتجه العلوم والمعارف [1]. إنّ الإنسان مُنح عقلا واستطاعة وحُسن تصرف، يستطيع بها إدراك القوانين التي تربط الألفاظ الأسماء والمعاني، كما يستطيع تأليف مالا ينتهي من الجمل يقول "الجاحظ":« والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتّصرف والرّوية، إذا علم غامضا أدرك معنى خفيا لم يكد يمتنع عليه إذا قاس بعض على بعض[...]» [2]

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يبين لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتّمكين، وحين فضّله على جميع الحيوان بالمنّطق والعقل والاستطاعة، فبطول استعمال التكلّف ذلت جوارحه بذلك،« ومتى ترك شمائله على حالها ، ولسانه على سَجيته، كان مقصورا بعادته المنشأ على الشكل الذي لم يزل فية.» [3]

مَيتٌ مَاتَ وهُو في وَرقِ العَيشِ   مقيمٍ بِهِ وظِلٍ ظَليلٍ [4]

ومن بين السِّمات التي دعا إليها "الجاحظ" هي العلاقة بين اللّفظ والمعنى الدال والمدلول فلابد أن يكون هنالك تناسب وتناسق بينهما، حيث يكون اختيار اللّفظ مصيبا للمعنى، وعلى قدره وربما يعود بعض الربانيين من الإسهاب، وكل ما جاوز القدْر، كما يتعوذون من كل ما يبعدهم عن"رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فقد روى ابن" عمر رضي"الله عنهما، فقال أنّ أُناسا سألوا "بن عمر" الدعاء لهم، فقال: « اللّهم ارحمنا وعافنا وارزقنا فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن فقال: نعود بالله من الإسهاب » [5]، لقد توصّل "الجاحظ" بفضل عقله المتميز إلى ما يميز الإنسان عن غيره بما خصّه الله من استطاعة، وحُسن البيان حتى غدا الإنسان مرتبطا ارتباطا

---

[1] بوملح علي، المناحى الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط1،دس، ص: 101.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج7، تح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1،1965،ص:559.

[3] نفسه، البيان والتبيين، ج1، ص: 70.

[4] نفسه، ج1، ص: 65.

[5] نفسه، ص: 97.

كليا بالمنّطق والإبانة ،كما وجدنا أنّ العملية التّلفظية تقوم بها وسيلتان: لِسان يلفظ وقلب يَعِي ويُدرك ولأجل ذلك قال: « اللّسان أداة يظهر بها حُسن البيان، وظَاهر يُخبر عن ضمير، وشاهد يُنبئك عن غائب[...]. » [1]

-دلالة الإشارة:

بعد أن تحدث"الجاحظ" عن "دلالة اللّفظ" انتقل إلى"دلالة الإشارة" وبيّن فضلها، وفائدتها وما تميزت به عن اللّفظ من خصائص، بل وجدها أحيانا تتجاوز فضل اللّفظ، فحديث "الجاحظ" عن "دلالة الإشارة"لم يكن بمعزل عن الرَّد عن الشُعوبية طبعا.

إنّ "دلالة الإشارة" لها علاقة وطيدة باستعمال العصا خصوصا إذا تعلق الأمر، بالخطابة فتصبح لها العصا مآرب جَمة، والإشارة بها إحدى هذه الفوائد التي تجنيها، لأجل ذلك حاول" أبو عثمان" أن يرد على إدعاءات الشُعوبية التي تدل دلالة قاطعة على الكراهية، والحِقد العرب لعقيدتهم السّمحاء، فجاء "البيان والتبيين" خِصيصا لهذه المسألة وهذا لإثبات أنّ البيان، والإشارة بالعصا ،وغيرها من اختصاص العرب، وتفوقهم على الكثير من الأمور في ذلك.

إنّ تمسك"الجاحظ" "بدلالة الإشارة" لم يكن بمجرد التعنُّت، بل لما رآه من فوائد تحملها، كما أنّ "للإشارة" وسائل كثيرة، وعلى رأسها التي ذكر الله-عز وجل- مآربها وهي خير رّد على مكائد الشُعوبية فقال الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾[2]، فيقول الله – سبحانه وتعالى- على لِسان "سيدنا موسى عليه السلام": « ولِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » يجعلنا أن نتصور جملة من الفوائد للعصا كالإشارة بها عند الخُطبة، أو في غيرها فهي تزيد الكلام بيانا ووضوحا، ولابد أن نذكر بأنّ الجزء الثالث من

[1] الجاحظ، البيان والتبيين،ج2، ص: 75.

[2] سورة ، طه، الآية:18/17.

كتاب "البيان والتبيين" محاولة لصاحبه، أن يبيّن فضل العصا وفوائدها، رادا في نفس الوقت على أقوال الشُعوبية وادعاءاتهم.

كما تنبه" الجاحظ" إلى أمر يحتاج إلى الذِكر و التّنويه به، وهو مدى أهمية "الإشارة" إذا جعلها مباشرة بعدد دلالة اللّفظ، وهذا نظرا للمكانة الكبرى التي تحتلها في البيان العربي إذا توصل إلى أنّ: « الإشارة واللّفظ شريكان ونِعم العون هي له، ونِعم التُرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ وما تعني عن الخط. » [1]فإشارة تعتبر تُرجمان للّفظ ومعين له كما أنّها تزيد قوة في البيان ووضوحا في الدّلالة، وبالتالي تعوضه النقص الذي يعاني منه فلولا الإشارة لبقيت الألفاظ عاجزة عن الوصول إلى بعض المعاني، فهي عون مهم في اللّفظ في توضيح مقاطع الكلام وأقسامه مثلما قال "الجاحظ":« والمغَنِي قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني.» [2]

وها هو "الجاحظ" يعدّد لنا بعض وسائل الإشارة،« فوجدها أنّها تكون باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسّيف، وقد يتهدَّد رافع السّيف والسّوط فيكون ذلك جَازرًا ومَانعًا رَادعًا ويكون وعيدًا وتحذيرًا » [3]، فهذه الوسائل التي ذكرها "الجاحظ" تجعل اللّفظ يرتقي من مرتبة البيان إلى التبيين أو حُسن البيان؛ فالمتحدث لا يستطيع الاستغناء عن الإشارة ويكتفي باللّفظ فهذا "عبد المالك" يقول بشأن ذلك: « لو ألقيتُ الخَيْزُرَانَة من يدي لذهب شطر كلامي» [4]،"كذلك المغني « لو قبضتَ يده ومنعتَ رأسه عن الحركة لذهب ثلثا كلامه. » [5] وهاهو "ثمامة بن الأشرس" الذي كان من المتحدثين عن مكانة الإشارة من اللّفظ إذ يرى أنّ المتكلم قد يستغني عن الإعادة، وقد لا يحتسنُ، ولا يتوقف ولا يتلجلج، ولا يترقب لفظا قد

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 78.
(2) نفسه، ج3، ص: 119.
(3) نفسه، ج1، ص: 77.
(4) نفسه،ج3، ص: 119.
(5) نفسه، ج3، ص: 119.

استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد صعب عليه، طلبه غير أنّه لا يستغني مطلقا عن الإشارة يقول: «كان جعفر بن يحي أنطق النّاس، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحلاوة إفهاما ما يغنيه عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة، لا يستغني جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة.»[1]

وتجدر الإشارة أنّ "الجاحظ" تنبّه إلى مسألة تبدو في غاية الأهمية، باعتبار الإشارة أصلح وأنجع للتعبير عن خاص الخاص، أو ما يسمى الخاصة فهي لغة يفهمها عامة النّاس، لارتباطها بوضع خاص بين المتكلم والسّامع أو ما يسمى بالمرسل والمرسل إليه ،كما أنّ دلالتها تكون دفعة واحدة، لكفاءة متميزة كونها لا تتسم، فهي في أغلب الحالات عكس اللّغة اللّفظية التي تمتاز بالخطية الزمنية، فالمتكلم لا يستطيع التّلفظ بكلمة ما في نفس الزمن، فهي تتم بين مجموعة معينة من النّاس يصطلحون على ألفاظ لمعاني خاصة بهم، وليست متداولة عند غيرهم من الناس.

يقول "الجاحظ":« وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحِلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب، وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض النّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ولولا الإشارة لم يتفهم معنى خاص الخاص وجهلوا هذا الباب البتة، ولولا أنّ تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم »[2]، في النص السّابق نجد "الجاحظ" تكلم عن الإشارة بالعين، وهي احدى الجوارح التي يستعملها الإنسان في الإشارة إلى ما يريد؛ فالعين قد تحمل من عبارات ومعاني الترحيب ما يعجز عنه اللّسان ،أو بيان اللّغة، أو حركة صغيرة من عين تُغني عن الكثير من اللّفظ يقول الشاعر:

أشارتْ بطَرْفِ العين خِيفَة أهلِها إشارةَ مذْعورٍ ولم تتكلَّمِ

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 105.

[2] نفسه ، ج1،ص: 78.

فأيقنْتُ أنَّ الطَّرفَ قدْ قال مرحبًا وأهلاً وسهلاً بالحبيبِ المتيَّمِ

وقال أخر:

ولِلقلب على القلبِ دليلٌ حينَ يلقاهُ

وفي النَّاس من النَّاس مَقاييسُ وأشباهُ

وفي العينِ غنىً المرء أنْ تنطقَ أفواهُ

وقال أخر:

وعينُ الفتى تُبدي الذي في ضميره وتعْرِف بالنجوَى الحديث المعَمِسَّا

من خلال الأبيات الشعرية، يبدو أنّ العين بإشارتها اللّطيفة، تدل على ما يُضمره قلبُ المرء من المحبة، أو البُغض والخُبث. وهناك ما يقوم مقام الجوارح يقول الجاحظ: « فأمّا الإشارة باليد وبالرأس وبالعين[...] وبالثوب وبالسّيف وقد يتهدد[...] وعيدا وتحذيرا.» [1]

فهذه الوسائل التي ذكرها "الجاحظ" من الثوب، والسّيف، والسّوط تكون نائبة عن الجوارح، التي تكون لها الإشارة للتعبير عن دلالة المعاني، وقد يحمل الخطيب العصا أثناء الكلام، خاصة إذا تعلق الأمر بالخطابة، كما أشار "أبو عثمان" إلى أنّ الإشارة قد تكون باللّفظ ويظهر ذلك واضحا في قول "أبو داوود ابن جرير الأيادي":

يَرمُونَ بالخُطبِ الطِّوالِ وتارةً وَحْيَ الملاَحِظ خِيفةَ الُرقَباءِ [2]

---

[1] الجاحظ،البيان والتبيين، ج1، ص:78،79.

[2] نفسه، ج1، ص: 44.

وفي موضع آخر من "البيان والتبيين"، يرى "الجاحظ" أنّ رُبَ كلمة تغنى عن الخطبة وتنوب عن رسالة بل رُبَ الكناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير يعيد الغاية إلى النهاية.[1]

ومن الإشارة باللّفظ في قوله تعالى:﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2] ومن الإشارة باللّفظ أيضا قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[3] فالبلاغة العربية استطاعت أن تدرك الفرق الجوهري بين اللّفظ العادي الحامل دلالة معجمية، ومن بين إشارة لفظية تدل على معاني كثيرة، وبالتالي يكون اللّفظ قليلا والمعنى كثيرا.

كما أن للإشارة ميزة أخرى تتميز بها، كونها قادرة على إيصال الرسالة التي يصعب فيها استعمال الصّوت كصخب المعارك ،أو ظروف جوية معينة ،أو بعد مسافة يقول الجاحظ":« ومبلغ الإشارة أو بعد من مبلغ الصّوت هذا باب تتقدم فيه الإشارة الصّوت والصّوت هو آلة اللّفظ. »[4]، في فحوى حديث "الجاحظ" السّابق نجده يعطي كل الأفضلية للإشارة دون تردّد أو تخوّف وهذا واضح من خلال قوله:« فهذا باب تقدم فيه الإشارة الصَّوت.» وكأنّ به يُعدّد محاسن الإشارة، وهي فعلا تُعتبر وسيلة مهمة لحمل المعاني والتعابير، في وقت قصير ولمسافات بعيدة، خاصة إذا كانت الظروف لا تسمح بذلك مع اللّفظ، غير أنّ سيادة الإشارة كإحدى وساءل البيان في الفكر العربي، لم يمنع المستخدم لها من ضرورة مراعاة الأحوال والمقامات؛ فاستخدامها يتطلب منّا أن نراعي أقدار السّامعين[5] قال "ابن سنان": « أنّ التذييل يصلح للمواقف الجامعة، و بحيث يكون الكلام مخاطبا

---

(1) الجاحظ،البيان والتبيين، ج2، ص: 7.

(2) سورة الزخرف، الآية:71.

(3) سورة النجم، الآية:10.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 58.

(5) ينظر: مصطفى السعداني، استاطيقا الإشارة دراسة بلاغية سيميوطيقية، توزيع منشأة المعارف بالإسكندرية،دط،1994،ص:28،29.

به عامة النّاس[...] والإشارة تصلح لمخاطبة الخلفاء والملوك.» [1] فما جاء به "الجاحظ" يكاد يتفق مع الدراسات الحديثة يقول "أولمان":« وتنشأ مع احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس ويستعملون في علاقاتهم، الوسائل التي وضعتها الطبيعة، تحت تصرفات الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة والنضرة إذا لم تكف الإشارة. » [2]

إنّ علامة الإشارة هي مفهوم تختلف كل الاختلاف عن العلامة اللّغوية،كونها تحدث في إطار ضيق، وتتم في ظروف خاصة بين مجموعة معينة، من الأفراد يتفقون على إشارات وإحاءات وفي بعض الحالات ألفاظ خاصة بهم تنمُ عن معاني خاصة بهم، أو لما يسمى بإشارة اللّفظ.

-دلالة العَقْد:

"العَقْد" هو القسم الثالث من أقسام الدّلالات على المعاني، يأتي ترتيبه بعد "الإشارة"، ومفهومه يرتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة الإسلامية السّمحاء، التي تدعو الإنسان إلى التّأمل في هذا الكون العجيب، الذي صنعة الله عز وجلّ وفق نظام دقيق وعجيب يقوم على قوانين، تدل دلالة قاطعة على حُسن صُنعه، وعظمته، وقوته، هذه القوانين التي يسير على إثرها هذا الكون بمختلف مستوياته ومكوناته، من أبسط الأشياء إلى أعقدها ومن أصغرها إلى أكبرها، كما أعطى الله الإنسان العقل هذه القوة التي تُوصّل البشر إلى إدراكه حقائق هذا النظام الربّاني قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [3] وقال تعالى:﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [4]، فكلما حاول الإنسان

(1) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية ط 2، 1982، بيروت، ص: 199.

(2) ستفين أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشير، غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، دس، ص: 12.

(3) سورة يس، الآية: ، 38/ 39/ 40.

(4) سورة الرحمان،الآية:5/4/3 .

فهم نظام هذا الكون استطاع بذلك اكتشاف أسراره وقوانينه، التي تخضع لها وإدراك دقة الحساب الذي يقوم عليه فعناصره لا تسير ولا تتحرك إلاّ وفق نواميس في غاية الدّقة، لا تتغير إلاّ بإرادة الخالق الحي القيوم القادر على كل شيء، فله المشيئة وفي ما أراد، وعليه كما عرف الإنسان حقائق الأشياء والقوانين التي تسيرها زاد تفكّرا وتفكيرا في النّظام الكوني، هذا باعتبار "العَقْد" وسيلة من وسائل البيان، قال تعالى:﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[1] يقول "الجاحظ" : « وأمّا القول في العَقْد وهو الحِساب دون اللّفظ والخَط، فالدّليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به »[2] قوله عز وجل:﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[3] وقال جل وتقدس:﴿ الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ،الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾.[4]

إنّ المتأمل في الآيات التي استعملها"الجاحظ" كحُجة ودليل على مدى أهمية "العَقْد" والحِساب في النّظام الكوني، وحياة البشر فالله –سبحانه وتعالى–ودُكر لفظ الحِساب في صورة متفرقة من القرآن الكريم، وهذا يدل على ارتباط "العَقْد" بالعقيدة الإسلامية؛ نظرا لما يحمله من الأهمية كونه يشتمل على منافع جمة يقول " الجاحظ": « والحِساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جلية، ولو لا معرفة العِباد بمعنى الحِساب في الدنيا لما فهموا عن الله –عز وجل– ذكره معنى الحِساب في الآخرة .»، فلولا الحِساب فكيف تقع المحاسبة بين يدي لله عز وجل؟.

ومن بين أهم الوسائل التي يعتمدها الإنسان في دلالة "العَقْد" العقل، لأنّ العَدَّ والحِساب مستوى من مستويات التجريد، فدلالته تختلف عن دلالة اللّفظ والإشارة، ومادام العَدُّ شيئا مجردا لاعتماده على العقل، فهو لا يختلف عنه ولذلك أباح لنفسه "الجاحظ" تعمُّد الالتباس باختيار مفهوم "العَقْد"، وما يؤكده هذا قوله:

---

[1] سورة الرحمان، الآية:5/4/3.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 80.

[3] سورة الأنعام، الآية:96.

[4] سورة الرحمان، الآية:5/4/3/2/1.

«[...]لون أنّ أقبح النَّاس وجهًا[...]قال لامرأة قد تمكن من كلامها ومكنته من سمعها والله يا مولاتي وسيدتي لقد سهرت ليالي، وأرّقت عيني وشغلتني عن مهم أمري، فما أعقلُ أهلاً ،ولاَ مالاً، ولاَ ولدًا ،لنقض طباعها ولفسخ عقدها.» (1)

إنّ المتتبع لمفهوم "العَقْد" لنصوص "الجاحظ" الأخرى يكتشف أنّ "العَقْد" هو دلالة رياضية، تعتمد على العقل والمنّطق، لاستنباط المعنى الذي يبحث عنه كل من المتكلم والسّامع، و"العَقْد" دلالة نظرية بحتة منشأها العقل وصورتها المنطق، وغايتها الإقناع المطلق. (2)

إنّ هم "الجاحظ" الوحيد هو الكشف عن أي معنى من المعاني، لأنّ اكتشافه دلالة "العَقْد" هو مستوى تتساوى فيه كل الدَّلالات، وتصبح جميعها عبارة عن قضايا متشابهة، ليتعامل معها العقل الإنساني بالطريقة نفسها، وهذا المستوى من التجريد قد توصل إليه أيضا علماء الدّلالة حديثا وكذلك المناطقة.

إنّ مفهوم "العَقْد" أو "الحِساب"، يشمل الكثير من العمليات العقليّة والذهنية، وقد قلنا سابقا أنّ البيان كل ما يكشف معنى من المعاني يقول "الجاحظ":« والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب[...] فبأيّ شيء بلغت الإفهام أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع » (3)، فدلالة "العَقْد" جعلت "الجاحظ" ينصرف كليه إلى الاهتمام بالمعنى، وذلك حيثما ارتقى بتفكيره من المستوى المادي المحسوس إلى المستوى التجريدي، وهو مستوى تتساوى فيه الدّلالات إذ لا فرق بين دلالة اللّفظ، أو دلالة الخَط أو دلالة الإشارة ، أو بين دلالة الطّاووس والذبابة ،أو النار والماء ،كما لا يهم الدال بقدر ما يهم بالكشف عن معنى من المعاني، وفي ذلك يقول "الجاحظ": « وليس بين الرسوم التي تكون في الحافر كله، والخَف والظَلف كله

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، ج1، ص: 96.

(2) ينظر: بناني محمد الصغير، المدارس اللّسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص:19.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 76.

وبين الرُّقوم فرق، ولا بين العقود والرُّقوم فرْق،ولا بين الرُّقوم والخطوط، وكلها فَرْق وكلها خطوط وكلها كتاب أو معنى الخط والكتاب، ولا بين الحروف المجموعة المصورة من الصّوت المقطع في الهواء ومن الحروف المجموعة من السواد في القرطاس، فَرْق واللّسان يضع جَويَة الفم، وفي خارجه وفي لهاته وباطن أسنانه، مثلما يضع القلم في المداد واللِّيقة والهواء والقِرطاس، وكلها صور وعلامات وخلق مواثل ودلالات.» [1]

وفي نص "الجاحظ" نلاحظ أنّ كل أصناف الدّلالات وجميع فروعها ما هي إلاّ خلق مواثل ودلالات، فهو يرى مهما كانت نوعية الدّلالة إلاّ وكانت بمعنى من المعاني.

– دلالة الخَط:

"الخَط" هو القسم الرابع من أقسام العلامة في نظرية "الجاحظ"، وهو قسم جد مهم نحتاج إليه في ظروف قد يتعذر علينا استعمال اللّفظ أو الإشارة لبعد المسافة، أو عدم حضور من نريد الاتصال به الغَيبة، وبالتالي توصّل الإنسان إلى اكتشاف "الخَط" بما فيه من تحدي ومواجهة للّغيبة، بالإضافة إلى القدرة الخارقة على اجتياز الأزمات والأماكن "فالخَط" يعتبر ذاكرة للأجيال،فهو ينقل ما خلفه الماضون من موروث ثقافي و معرفي للأجيال فلولاه ما عرفنا عن ماضينا التّليد شيئا ،"فالخَط" ذليل مادي يمتد في المكان فلا يعرف حدودا، كما أنّه يمتد في الزمان. فما قلناه يؤكده لنا "الجاحظ" في كلام موجز في "البيان والتبيين": « قالوا القلم أحد اللّسانيين كما قالوا: قِلة العِيال أحد اليسارين وقالوا: القلم أبقى أثرا واللّسان أكثر هَذْرا، فقال "عبد الرحمن ابن كيسان": استعمال اللّسان على تصحيح الكلام، وقالوا: اللّسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشّاهد والغائب وهو

[1] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص: 48، 49.

للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللّسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره.» [1]

لقد أدرك "الجاحظ" أنّ المعاني موجودات في الصُّدور، ويعبر عنها "بالخَط" كما يمكن التعبير عنها باللّفظ ويعجب الإنسان بها مكتوبة تستلذها الأعين ،كما يعجب بها مسموعة تردّدها الألسن بقول "الجاحظ":«[...] ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني، ورأيت البصر في هذا الجوهر في الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حُذاق الشعراء أظهر.» [2]إلاّ أنّنا نجد في المقابل أنّ هناك من الفلاسفة المتقدمين من يحط من شأن الكتابة الخَط ويرى بأنّه ليس لها دور ضروري، فهي بنظرهم دليل على الألفاظ وليست دليلا على المعاني؛ وإن ذلت بلا توسط الألفاظ، يقول : « قد كان يمكن أن تكون لها دلالة على الأثار بلا توسط الألفاظ،حتى يجعل لكل أثر في النّفس كتابة معينة، مثلا للحركة كتابة[...] وللأرض أخرى، وكذلك لكل شيء لكنّه لو أُجري الأمر على ذلك لكان الإنسان ممنوا بأن يحفظ الدّلائل على معاني النّفس ألفاظا ويحفظه نقوشا والأوّل يسهل له إمّا برياضة التربية، وإمّا يتعلم شاق فإذا ألزم مرة ثانية أن يحفظ كتابة بهذه الصّفة كان كمن يلزم تعلم لغة من رأس، فوجد الأخف في ذلك أن يقصد تعلم إلى الحروف الأولى القليلة العدد فيوضع لها أشكالا فيكون حفظها معنيا عمّا سلف ذكره فإنّها إذا حفظت بتأليفها رقما تأليف الحروف لفظا، فصارت الكتابة بهذا السبب دليلا على الألفاظ أولا.» [3]

يمكننا أن نقدم شكلين توضيحيين نبين فيهما تركيب دلالة "الخَط" عند شُراح ومفسري "أرسطو" وعند "الجاحظ".

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 76.
[2] نفسه،ج4، ص: 24.
[3] عادل فخوري، علم الدلالة عند العرب دراسة مقارنة مع السمياء، دار الطليعة، بيروت، ط4، 2003، ص: 7.

- أرسطو:

خط ←——— لفظ ←——— صور ذهنية ←——— أمر خارجي.

(دلالة خارجية) (دلالة خارجية) (دلالة طبيعية)

من خلال هذا الرسم التوضيحي نلاحظ أنّ دلالة ا"لخَط" عند "أرسطو" تتألّف من ثلاثة دلالات.

- الجاحظ:

خط ←——— صورة ذهنية

(دلالة خارجية عرفية)

نلاحظ أنّ دلالة "الخط" عند "الجاحظ" هي دلالة لا تحتاج إلى توسط الدلالة اللّفظية، فهي تربط مباشرة "الخَط" بالمعنى ثم يذهب "الجاحظ" إلى مَسألة تبدو في غاية الأهمية، ألا وهي العلاقة الرابطة بين الخَط والمعنى المعبر عنها، فهي علاقة عُرفية غير مُعللة تفهم من خلال الممارسة والاكتساب، فيعرَف منها في تلك الألوان لطول تكررها على الإبصار كما استدلوا بالضحك وصور جميع الهيئات [1] ،وكما عرف المجنون لقبه والكلب اسمه، وعلى مثل ذلك فهم الصّبي الزجر والإغراء وردع المجنون الوعيد، [2] وعليه يؤكد "الجاحظ" عرفية دلالة الخط لكنه لم يخصها لوحدها بهذه الخاصية، فهنالك دلالة الصّوت، والإشارة جعلهما دلالتين عرفيتين يكتسبان عن طريق التكرار، والتعلم في بعض الأحيان.

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، 1998، ص: 18

(2) ينظر: الجاحظ، الحيوان ج1، ص: 48.

يمكننا أن نقدم عُرفية وتواضُعية دلالة كل من "اللّفظ" و"الخط" و"الإشارة" وفق الخطط.

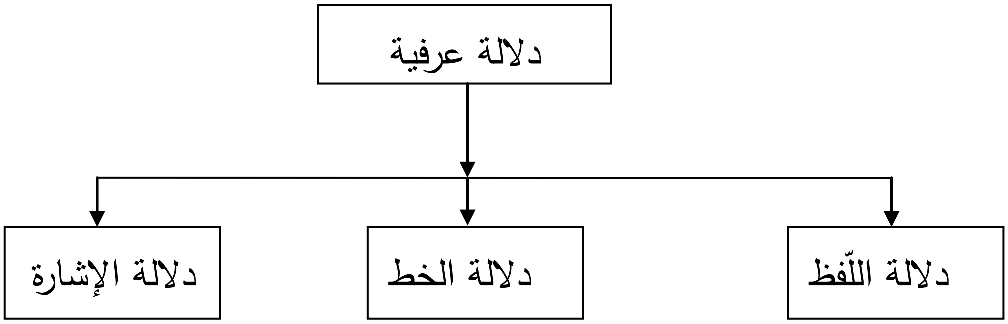

-دلالة النُّصبة:

"النُّصبة" « إقامة الشيء ورفعه.[..] فمعاجم اللّغة تُجمع على أنّ الارتفاع والظهور من الدلالات مادة (ن – ص– ب) ومنها تيس انصبَ أي مُنصب القُرون، ونافة نصْباء، مرتفعة الصّدر[...]، ومنها أيضا النُّصبة للسّارية والغَية، والنِصاب الأوثان... » [1]، أما عند "الجاحظ" فإنّ "النُّصبة":« هي الحال النّاطقة، بغير اللّفظ والمشيرة بغير اليَد، ذلك ظاهرة في خلق السّماوات ،والأرض، وكل صَامت وناطق[...] » [2]،و الحديث عن مفهوم "النُّصبة"، لا يمكن تصور أبعاد إلاّ بتصور مفهوم الصِفر، وظيفته في العمليات الحسابية العددية [3]، فانّه وإن دل في ذاته وفي دلالته الهامة في العمليات الحسابية الأخرى، فهو مدلول بغير دال ومعني بغير كلام وهذا ما يمكن أن نلحظه في قول شاعر:

واعْلَمْ بأنَّ السُّكونَ إبانَة   ومنَ التكلّم ما يكون خَبالاً

(1) ابن منظور ،لسان العرب، ج1،ص: 758.
(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 81.
(3) ينظر:محمد الصغير بناني، المدارس اللّسانية في التراث العربي، ص: 19.

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وصوره في أحسن هيئة فكانت نصبته، وحاله دليلا على قدرت الخالق جل وعلا قال تعالى:﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ، إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾. [1]

وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ،الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ،فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [2]

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [3]

في هذه الآيات الكريمة يأمرنا المولى تبارك وتعالى بالتّأمل والتدبّر في أنفسنا، والهيئة التي عليها ثم التّأمل في جميع ما وُجد في هذا الأفق الواسع الممتدة المسخَّر لهذا الإنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. [4]

في الآية دعوة صريحة إلى التّأمل، في كل آية من آيات هذا الكون والعقل هو الأداة الوحيد للتفكير والتّأمل والنّظر فهي هبة ونعمة من الله سبحانه وتعالى، منحنا إياه عن وسائر المخلوقات ليرى فيشكر [5]، وبالتالي تميّز الإنسان عن كل المخلوقات، فالعقل يعتبر تكريما له وهو، وسيلة للاستدلال على المعارف الباطنية يقول " الجاحظ": « فلا تذهب إلى ما تَريك العين، واذهب إلى ما يَريك العقل، وللأمور حُكمان: حُكم ظاهر للحواس

(1) سورة الإنسان، الآية: 2/1.

(2) سورة الانفطار، الآية: 8/7/6.

(3) سورة الطارق، الآية:6/5.

(4) سورة البقرة، الآية:164.

(5) ينظر: بوملح على، المناحى الفلسفية عند الجاحظ، ص: 96.

وحكم باطن والعقل هو الحُجة.» [1]، فلولا العقل لما استطاع الإنسان معرفة نفسه، والعالم المحيط به ،ومن ثم معرفة الله عز وجل والإيمان به إيمان يليق بمقامه، وهذا نبي الله "عيسى ابن مريم عليه" قال: « البِرُ ثلاثة المنّطق والمنظر، والصّمت، فمن كان منطقه في غير ذِكر فقد لغا، و من كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صّمته في غير فكر فقد لها.» [2]

فما شاهده من عوالم في هذا الكون الرحب يحتاج إلى تأمل، وصّمت حتى يكتشف قدرة الخالق الذي خلق هذه العوالم ونصبة احدها.

"النُّصبة" تصور قَلبَ اللّسانيات الحديثة، رأسا على عقب ، فالمعنى حسب رأي "الجاحظ" ليس الوجه الخفي لدال، ولكن مدلول بغير دال، أو مدلول ودال سلبي. [3] فهذا المفهوم الذي جاء به "الجاحظ" ينطلق أساسا من فكرة مهمة في التصّور العَقِدي الديني، ألا وهي إثبات قدرة عظمة ووحدانية الله سبحانه وتعالى، فهو متأثرا شديد بالذين و"النُّصبة" إحدى أهم الدّلالات التي لها القدرة على إثبات قدرة الله عز وجل.

لم يفصل "الجاحظ" بين دلالة ناطق وصامت من جهة "النُّصبة" حتى كان عنده كل ما في الكون نظاما وبيانا يدل على قدرة ،يقول: « وذلك ظاهر في خلق السّماوات ،والأرض، وفي كل صامت ،وناطق، وجامد ونام ومقيم ،وظاعِن، وزائد وناقص، فالدّلالة التي في الموَات الجامدِ كالدلالة التي في الحيوان النّاطق، فالصّامت ناطق من جهة الدّلالة والعجماءُ مُعربة من البرهان.» [4] وإذا أرادت أن تسأل الأرض فاسألها فإنّها ستجيب بأي حال

---

(1) الجاحظ، الحيوان، ج1، ص: 114.

(2) نفسه، رسائل الجاحظ، م1، ص168.

(3) ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللّسانية في التراث العربي،ص:19.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين،ج1، ص:81.

من الأحوال، كما قال "الفضل بن عيسى بن إيان":« سَلِ الأرض فقل: منَ شقَ أنهارك، وغرس أشجارك وجَنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوار أجابتك اعتبارا.» (1)

"النُّصبة" مهما تعددت آياتها وكثرت فإنّها تتسم بصفة أساسية، و مهمة، وعلى مبدأين أساسيين "فالجاحظ" يرى أنّ الشّيء متى دَلَ على معنى فقد أخبر عنه، وإن كان صامتا أشار إليه وإن كان ساكنا . (2)فقد جعل "الجاحظ" العالم وما فيه من علامات ورموز، وشواهد تدل على جملة من المعاني، فهي لم توجد اعتباطا بل كونها حاملة رسالة لأصحاب العقول الذي يتفكرون في خلق السّماوات ،والأرض وما بينهما، فكل تفكير فيها العوامل هو اعتراف بالله عز وجل والإيمان به، فالإنسان حينما يستعمل عقله في التفكّر والتدبّر والتأمّل، في هذا الكون واحتواه من عناصر ،فإنّه يتوصل إلى إدراك اليقين، انطلاقا من مخلوقات الله، فحكمته تتجلى لنا في مخلوقاته بداية من أبسطها، فكل شيء دليل على الدّقة ،والقدرة الربانية، قال خطيب حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت: « الإسكندر، كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوْعَظَ منه أمس.» (3)

إنّ "النُّصبة" وحالة وهيئة الأشياء دليل نستطيع أن نستبدل بها، على حقائق ومعاني كامنة في هذا الشيء المنتصب، فقديما كان النّاس يستدلون على ذكاء وعلم الرجال، انطلاقا من حالة الظاهرة والهيئة وهذا ما حكم به "الجاحظ" على "سهل بن هارون" يقول "الجاحظ": « وكذلك كان سهل ابن هارون عتيق الوجه حسن الشارة، بعيدا من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصّورة، يقضي له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذّهن قبل المخاطبة، ودقة المذهب قبل الامتحان، وبالنُبل قبل التكشّف، فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده، وإن أدخل ذلك على حالة النقص.» (4)

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:81.
(2) نفسه، ص: 82.
(3) نفسه، ص: 81.
(4) نفسه ، ص: 89.

إنّ "النُّصبة" في النص السّابق، هي العلامة الشاهدة الظاهرة للعيان، تدل على أمر غائب هو المهارة الخطابية، "لسهل ابن هارون" فالحكم عليه بذلك كان انطلاقا من السّمات المميزة له باعتبارها علامات دالة على مكانة وقدرة الرجل الخطابية، وهاهو نص أخر يقول فيه "الجاحظ": « وقع بين فتى من النصارى وبين "ابن فهريز" المطران كلام، فقال له الفتى: ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك ! وكان "ابن فهريز" في نفسه أكثر النّاس علما وأدبا وكان حريصا على الجثلَقَة، فقال للفتى: وكيف حَلْتَ عند هذا المحل؟ فقال: لأنّك تعلم أن لا نتخذ الجثاليق إلا مديد القامة، ولا نتخذ إلا جهير الصّوت، وأنت دقيق الصّوت رديء الحلق، ولا نتخذه إلاّ وهو وافر اللّحية عظيمها، وأنت حفيف اللّحية صغيرها، وأنت تعلم أنّا لا نختار للجَثلَقَة إلاّ رجلا زاهد في الرياسة وأنت أشد النّاس عليها كلبًا، وأ ظهرهم لها طلبا فكيف لا تكون أجهل النّاس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة، وأنت قد شغلت في طلبها لك، وأسهرت فيها ليلك.» [1]

"فالجاحظ" في هذا النص حاول أن يعطي لنا سِرًا جميلا من خلال هذه المقارنة اللّطيفة التي أجراها بين الفتى النصراني وبين "فهريز"، وفي الأخير يقرر أن العلامات الظاهرة، تعتبر معيار التفاوت في ما هو شاهد، هذا يؤكد لنا شيئا مهما وهو مدى أهمية الإستدال بالنُّصبة على المعاني والدلالات، في كل ما يقع أمامها من العلامات والأدلة فالحقيقة السيميائية التي تتجلى لنا في دلالة النُّصبة، عند الجاحظ هو تأكيده على ما هو ظاهر وشاهد فإعطائه معنى من المعاني حتى وإن كان هذا الشيء صامت أو ساكتا.

من خلال ما تقدم نستطيع القول ودون مبالغة إن "النُّصبة" أو كما تسمى "بالذليل العَدْمِي"، كانت نتيجة الاحتدام الذي دار بين الفِرق الكلامية في إثبات قدرة وجود الخالق عز وجل، وهذا ما توصّلت إليه الدراسات اللّسانية الحديثة، أثناء دراستها اللّغات اللّسانية في تفسيرها لدلالة العدم، إذ يصبح السّلبُ أحيانا دليلا على

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 125.

الإيجاب، والسّكوت دليلا على الكلام [1]، وهذا ما أشار إليه "أبو عثمان" بكل وضوح بقوله: « ومتى دَل الشّيء على معنى فقد أَخبر عنه، وإن كان صامتا أشار إليه وإن كان ساكتا، وهذا القول شائع في جميع اللّغات ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات.» [2]كما يمكن اعتبار "النُّصبة" علامة تمثل كل الدّلالات فهي بالنسبة "للجاحظ" العلامة الكونية الدّالة فقد تحل محل الأقسام الأربعة، الأخرى فهي كما يقول "الجاحظ" أنّها أحد قِسمَي الحكمة هذه الحكمة مفادها التأمّل، في هذا الكون وما فيه من عوالم يقول "الجاحظ" في ذلك:

« فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه وداعية إليه، ومنبهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في بناء الإنسان الحيّ النّاطق.فمن جعل البيان خمسة أقسام فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللّغة وشاهد في العقل، فهذا أحد قسمي الحكمة وأحد معنيي ما ستخزنها الله تعالى من الوديعة.» [3] وفي ذلك يقول: « النُّصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر عن تلك الدّلالات[...]. » [4]

لقد كانت لدلالة الأقسام الخمسة عند "الجاحظ" علاقة مهمة بعقيدة التوحيد، كما أشرنا إليه أثناء حديثنا عن أسس تصور العلامة عنده، فبحثه عن الدّلالة كان له هدف واحد هو الوصول إلى حكمة الخالق الدّيان التي تتجلى لنا من خلال هذا الكون، وما فيه من عوالم، فهي تسير وفق نظام عجيب ودقيق، ينبئ عن قدرة الله سبحانه وتعالى، واكتشاف "الجاحظ" لهذه الدّلالات لم يكن من محض الصدفة أو ضرب من الطّلاسم بل تصور قائم على العقل باعتباره مصدر كل معرفة.كما بيّنّا أن كل من دلالة اللّفظ، ودلالة الإشارة و دلالة الخط،هي دلالات عُرفية تواضعية، حيث قام "أبو عثمان"بتفريعها إلى ثلاث دلالات، ثم أضاف إليها العقد و دلالة النّصبة،كقسمين آخرين، أما فيما يخص ترتيبه لهذه الأنواع الخمسة،كما أنّه أعتمد على مبدأ جِدٌّ مهم و

(1) ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللّسانية في التراث العربي، ص: 20.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 81،82.

(3) نفسه، الحيوان، ج1، ص:35.

(4) نفسه،البيان والتبيين، ج1، ص:76.

هو مبدأ ظهور الدال أو الغاية،فبدئها بدلالة العدم أو الغائب، و جعل دلالة العقد وسطا منزلة بين المنزلتين،يعني بذلك أنّها دلالة بين ظهور و غياب.

8- الإقناع:

لقد تحدث "الجاحظ" في مطلع كتاب "البيان والتبيين" عن الوظيفة الإقناعية للخطاب أو ما يسمى ب" بلاغة الخطاب الإقناعي" من خلال سرده مجموعة من النصوص ، نلفيها مطروحة في الصفحات الأولى من كتابه وفي ما يلي بعض ما يلي:

-«سأل الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام حين بعثه إلى فرعون لإبلاغ رسالته، و الإبانة عن حجته و الإفصاح عن أدلته.» [1]

-«و ليس حفظك الله، مضرة سلاطة اللّسان عند المنازعة، وسقطت الخَطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم ممّا يحدث عن العيّ من خلال الحجّة، وعن الحَصر من فوت إدراك الحاجة.» [2]

-«و قال موسى عليه السلام و أخي هارون هو أفصح منّي لسانا، فلأرسله معي ردّا يصدقني 38-34 و قال و يضيق صدري ولا ينطلق لساني.»

« و رغبه منه موسى في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدّلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنّفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعد المشقّة.» [3]

-«وذكر الله عز وجل لنبيه عليه السلام حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدّهاء، والنكراء، و المكر، ومن بلاغة الألسنة و اللّدَدِ عند الخصومة.» [4]

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 70.

(2) نفسه ،ص:12.

(3) نفسه ،ص:7.

(4) نفسه ،ص:8.

-«ثمّ ذكر خلاية ألسنتهم و استمالتهم الأسماع بحسن منطقهم.» (1)

-«كان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر فاضطره بالحجة والزيادة في المسألة حتى حرك، يديه وحَل حُبوته.» (2)

-«ومدح الله القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التّفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام و حكمة الإبلاغ،وسماه قرآنا.» (3)

-«ولما علم "واصل بن عطاء" أنّه الثغ فاحش اللّثغ،و أن مخرج ذلك منه شنيع،وأنّه،إذا كان داعية مقالة،ورئيس نحله، وأنّه يريد الاحتجاج على أرباب النحل،وزعماء الملل،وأنّه لابدّ من مقارعة الأبطال،ومن الخطب الطوال،وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز و سياسة[...]و ذلك أكثر ما تسمال به القلوب وثنى الأعناق،وتزين به المعاني و علم "واصل" أنّه ليس معه ما ينوب عن البيان التّام و التسديد،مع لباس التقوى و طابع النبوة[...]رام أبو حديفة إسقاط الراء.» (4)

-«و قال بعض جهابدة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم[...]مستورة خفية[...]لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه و خليله[...]و إنّما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها،وإخبارهم عنها،واستعمالهم إيّاها،و هذه الخصال هي التي تقر بها من الفهم،و تجليها للعقول، وتجعل الخفي منها ظاهرا،و الغائب شاهدا،والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس،وتحّل المنعقد،وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا و المجهول معروفا،و الوحشيّ مألوفا،و الغفل موسوما،والموسوم معلوما.» (5)

وإذا أردنا التفحص والتدبّر في هذه النصوص التي وردت في "البيان والتبيين" عن طريق معاينة فكرية منهجية،لوجدنا أنّ هذه الأخيرة تتجه اتجاها إقناعيا واضحا ويأخد هذا اللإتجاه مساحة ممتدة« بين قطبي

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:9.

(2) نفسه، ص:91.

(3) نفسه، ص:8.

(4) نفسه ،ص:15،14.

(5) نفسه ،ص:75.

الاستمالة والإضطرار ، مع تداخل هذين المستويين في الوسائل المؤدية إليها.» [1]، وبهذا تظهر إشارة جلية مؤداها أن البيان عند "الجاحظ".لا يقتصر عن الوظيفة الإفهامية فحسب،بل يتعدى البيان خط الفهم و الإفهام إلى مستوى حقيقي آخر ذو بعد تداولي محض وهو المستوى الحجاجي.

لقد تمكن الباحث "محمد العمري" من إثبات هذا المقتضى التصوري من خلال جدول تحليلي وضحه على الشكل التالي: [2]

المؤهلات والعوائق		صفاته و موضوعه		
المؤهلات	العوائق	الصفات	الموضوع	التأثير
المنطق الأحلام العقول الدهاء المكر الألسنة النكراء التمييز السياسة لبـــاس التقوى طابع النبوة	العيّ الحصر ضـــيق الصدر توقـــف اللّسان اللثغ	الإبلاغ الإبانة الإفصاح الفصاحة الوضوح الصحة البيان حســـن التفصيل الإيضاح وضـــوح الدلالة الإفهام الفهم الإحتجاج الأدلة	الـدعوة إلى مقالة الـدفاع عـن نحلة إبـــلاغ الرسالة الحجّة الحاجة المنازعة	إســـتمالة القلوب ثني الأعناق التصديق ميـــل الأعناق فهم العقول إســـراع النفوس الاستمالة الاضطرار التحريك حل الحُبوة

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتدادها،إفريقيا الشرق،المغرب،1999،ص:199.

(2) نفسه ،ص:198.

الملاحظ من خلال هذا الجدول أنّ بعض المصطلحات التي استخدمها "الجاحظ" في النصوص السّابقة كالدعاء و المكر و النكراء والاحتجاج والاضطرار بالحجة[...]تدخل في خانة صفات الاضطرار، هذا من جهة،وفي الاتجاه المقابل فإنّ كلّ من السياسة و المنطق والأحلام والإبانة وميل الأعناق[...]تنتمي إلى مجال أجلى صفات الاستمالة و بالنظر إلى الآثار التي توخاها الجاحظ من خلال النصوص،لكن القول أنّ كل هذه الوسائل تتجه نحو الإقناع سواء من جانب الاستمالة،أم من جانب الاضطرار.

إنّها بحق نظرة فكرية تعكس بوضوح انصهار بين المفهوم الأول العام، الذي يدخل ضمن إطار الرؤية العامة للعصر، والمفهوم الثاني الخاص المنتمي إلى إطار النزعات المذهبية، بحكم أنّه يمثل علما بارزا من أعلام المعتزلة ساهم إلى حد كبير من تقنين الخطاب الإقناعي ذو البعد البلاغي، إلاّ أنّ "الجاحظ" حسب محمد العمري لم يقدم لنا تفريقا واضحا جليّا بين المستوى المعرفي العام للبيان و المستوى الإقناعي التّداولي الخاص، بطريقة تجعل المستوى الأخير ذو الطابع التّداولي يشكل مستوى من مستويات الأوّل ذو الطابع اللّغوي أو السّميائي.[1]

ومن الومضات الفكرية الأخرى الدّالة على تركيز "الجاحظ" على الوظيفة الإقناعية للخطاب،حددته عن الإشارة و خصوصا عند تزامنها مع ممارسة اجتماعية أو فنية،يقول:«من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى،و يكون شيخا يعيد مدى الصّوت،و من تمام آلة الزَّمر،أن تكون الزمراء سوداء.و من تمام آلة المغني أن يكون فاره البرذون، برّاق الثياب، عظيم الكبر،سيء الخلق، ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميا، و يكون اسمه

[1] ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها،ص:199.

أذين [...]أو مشيا،و يكون أرقط الثياب،مختوم العنق، و من تمام آلة الشِّعر أن يكون الشاعر أعربيا،و يكون الداعي إلى الله صوفيا،و من تمام آلة السؤدد أن يكون السّيد ثقيل السمع،عظيم الرأس.» (1)

وفق هذا المقتضي من التصّور فإنّ هذه المظاهر الإشارية السّلوكية المصاحبة للّغة تضبع العبارات الملتفظ بها بصيغات ذات طاقات إيحائية تداولية بالدرجة الأولى،و بالتالي تدّعم الأفعال الكلامية و تثرى بالأبعاد التّداولية الحجاجية، لتصبح أكثر وقعا و تأثيرا على الملتقين من خلال قلب قناعاتهم و أفكارهم القبلية، في أطر الممارسات الاجتماعية و الفنية بكل صورها و أشكالها.و بِذا يمكن الخلوص إلى فكرة جوهرية في هذا المضمار المتعلق برصد البعد لإقناعي من خلال الإشارة،مؤداها:إن تعميق القدرة التعبيرية المؤثرة مرهون بالاعتداد على مظاهر سلوكية تصاحب اللّفظ و تتقوى به،و في هذا إشارة جلّية واضحة إلى تفطن "الجاحظ" إلى الأمور و الاستراتيجيات التي من شأنها خلق تأثيرات على المتلقين، و بالتالي ظهور تفاوت حقيقي بين خطاب و آخر، فعلى الرغم من تفوق خطاب على آخر من حيث البناء ، والتشكيل الداخلي له، إلاّ أنّه لا يمكن الجزم أن هذا الأخير ناجح في بعده التأثيري على أساس أنّ العديد من الخطابات لا تشتمل على دخيرة فنية كبيرة من حيث بنائها وهيكلتها الداخليّة إلاّ أنّها ناجحة في بعدها التّداولي لاغترافها واعتمادها على كل ما من شأنه التأثير على المتلقين كالمظاهر المصاحبة للخطاب و الصّوت المناسب من نبر وتنغيم و تغيرات الوجه[...]و الخطابات اليومية خير دليل على ذلك.

9- الإيجاز:

يعتبر أسلوب "الإيجاز" من أهم خصائص اللّغة العربية ،فقد كان العرب يميلون إلى الإطالة و الإسهاب و كانوا يجدون "الإيجاز" هو البلاغة ،إذ يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم:«أوتيت جوامع الكلم» (2) و "الإيجاز" عند البالغين عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، مع الإبانة و الإفصاح،يسهل تعلقها في الذهن

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص:95.

(2) نفسه، ج4، ص:29.

وتذكرها عند الحاجة [1]، و قد تحدث "الجاحظ" عند "الإيجاز" في مواضيع كثيرة بالشرح و التمثيل،لذلك نجده في كلامه عن "الإيجاز" لا يكاد يغادر إحدى القواعد التي يبنى عليها اللّسانيون اليوم نظرية الاقتصاد اللّغوي. [2]

تحدث "الجاحظ" عن "الإيجاز" فقال:« أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره.» [3] "فالإيجاز" عند "الجاحظ" هو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وفي موضع آخر يقول:« رب قليل يغنيك عن الكثير. بل رب كلمة تغنيك عن خطبة.» [4]

نلاحظ أن "الجاحظ" لم يعني "بالإيجاز" مجرد قصر الألفاظ وقلة عددها، و إنما أراد مساواتها الدقيقة للمعاني دون زيادة.

نجد "الجاحظ" في مدحه "للإيجاز" و إشادته به يقول:« إنّ جعفر بن يحيى كان أنطق النّاس، قد جمع الهدوء و التّمهل، والجزالة، والفخامة، والحلاوة، وإفهاما يغنيه عن الإعادة و لو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة.» [5]

"فالإيجاز" هو حذف زيادات الكلام قصد البلاغة، والإتيان بالمعنى الكثير، باللّفظ القليل ليكون للكلام حلاوة و عليه بالإيجاز طلاوة.

كما ذكر في حسن"الإيجاز" و مدى فعاليته في العملية التّواصلية فقال:«و الإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السّماطين، و في إصلاح ذات البين، فالإكثار من غير خَطل، و لإطالة في، غير إملال

---

(1) ينظر:فوزي السيد عبد ربه،المقاييس البلاغية عند الجاحظ،ص:218.

(2) ينظر:محمد الصغير بناني،النظريات اللسانية والبلاغية و الأدبية عند الجاحظ،ص:258.

(3) الجاحظ،البيان و التبيين ،ج1،ص:82.

(4) نفسه،ج2،ص:07.

(5) نفسه،ص:105،106.

و ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك.»[1]،ونفهم من هذا القول أنّ "الإيجاز" ضروري لكن بشرط أن لا يؤدي إلى التقصير و الإخلال بالمعنى، والإضالة تكون في حدود ما يتطلبه المعنى المقصود مع توفر الحجة المقنعة و الدّليل جزء من الحجاج، والركيزة الأساسية في عملية الإقناع.

نجد "الجاحظ" يعلم أنّ الإخلال من الألفاظ له حدّ أقصى، إذا تجاوزه المتكلم وقع في الإخلال لأنّ "الإيجاز" قد يكون أيضا دليلا على العجز. فيقول:« ودخل أبو طالب على المأمون فقال: كان أبوك يا أبا،خيرا لنا منك، وأنت يا أبا،ليس تعدنا ولا تبحث إلينا،و نحن يا أبا،تجارك و جِرانك، والمأمون في كلّ ذلك يبتسم.»[2] "فالإيجاز" هنا عند "أبو طالب" لم يكن مقصودا منه و لا دليلا على بلاغته،و "الجاحظ" أورد هذا الخبر ليبيّن لنا أنّ هناك حدا أقصى في "الإيجاز" لا يمكن تجاوزه.

و"الإيجاز" يقابل تداوليا إصابة عين المعنى،و توصيل الكلام إذا يقول:« فلان يقّل المحزّ و يصيب المفصل وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحادق فجعلوه مثلا للمصيب الموجز.»[3]

وثمة توجه عند علماء اللّغة المعاصرين يقابل مصطلح "الإيجاز" عند "الجاحظ"، و هو قانون "السهولة والتيسير" (Law of laest effort) أو "الجهد الأقل" و هو قانون براجماتي يمثل المنحنى الاقتصادي في اللّغة،إذ نجد أنّه يهدف إلى تحقيق حد أعلى من الأُثر لحد أدنى من الجهد.[4]

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص:116.

(2) نفسه، ج2،ص:233.

(3) نفسه،ج1،ص:107.

(4) ينظر:محمد أحمد أبو عبيد، براجماتية الكتابة العربية،دراسات في اللسانيات الاقتصادية،جامعة البلقاء التطبيقية،كلية اربد الجامعية، الأردن، www.shatharat.net/vb/printhread.php. ?! :8757

و الهدف النهائي الذي تسعى إليه البراجماتية الاقتصادية في مدار اللّغة، يتمثل في تشجيع استخدام الألفاظ والعبارات بالدّلالات الأكثر إيجازا و الأقل جهدا، و للّغة في الكتابة و الطباعة. [1]

10 – الخطابة:

لقد بدأ علم البيان ينمو ويتسِع ويشِع في العصر العباسي، ومن مظاهر هذا الإشعاع ظهور طائفة المتكلمين، الذين حرص كلّ الحرص على حدق فنون البيان، والتمرس بأساليب القرآن وطرقه حتّى يتسنّى لهم شرح عقائدهم الكلامية لنّاس من جهة، والدّفاع عنها ضدّ هجوم الخصوم من جهة أخرى، وهذا ما لجأ إليه رؤساء الملل والنحل في أغلب الأحيان ،وربّما كان ما يرويه لنا "الجاحظ" عن زعيم المعتزلة الذي أسقط حرف الرّاء من خطبته لأنّه كان يلثغ فيه _ لأكبر شاهد على سعي المتكلمين إلى الاغتراف من القدرات البلاغية، وقد اشد "الجاحظ" "لواصل بن عطاء " قوامه أنّه «كان داعية مقالة، ورئيس نِحلَة وأنّه يريد الاحتجاج على زعماء أرباب النِّحل وزعماء المِلَل وأنّه لابد من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطِوال ، وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة ،وإلى تمام الآلة، وإحكام الصّنعة.» [2]

فراح زعماء المذاهب الكلامية وخاصة المعتزلة يهتمون بتدريبهم وتلقينهم تقنيات الإقناع واستعمال الحجج للظفر بالمنظرات وكيفية إفحَام الخصم، وكيف يحسنون البيان ويصغون كلاما يستولي على قلوب السّامعين وقلوبهم. [3]

وتنكشف أمام هذه العتبة ،أنّ البليغ المتكلم ،وهو بصدد بناء خطابة الإقناع ينحو منحا استراتيجيا حجاجيا يقوم على الحجج، يضمن له الوصول إلى ما يسطره من أهداف مسبقة، ومن الباحثين والمنظرين اللّغويين

[1] ينظر: نادر سراج، مبدأ الإقتصاد بين النظرية اللسانية والحقيقة اللغوية، مجلة المستقبل، العدد: 2029، الأحد 4 أيلول 2005، لبنان، ص: 15.

[2] الجاحظ ،البيان والتبيين، ج1،ص:19

[3] ينظر شوقي ضيف ،البلاغة تطور وتاريخ،دار المعارف ،القاهرة،ط6، دس، ص:33.

الذين أكدوا على الطبيعة الحجاجية للإقناع "بيرلمان " ،في إطار ما عرف بمصطاح "الخطابة الجديدة" (The new rhetorique)،حيث أعتبر الحجاج (Argumentation) خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقى والتأثير في سلوكه؛ أي الإقناع (Persuasion) . [1]

كما كان شغلهم الشاغل بدراسة ما خلفه العرب القدماء من ملاحظات بلاغية ، وتخريجات معرفية بيانية توافدت عليهم من بعض الشّعوبية غير العربية ، مثل الهنود والفرس والرومان، وكان كل ذلك من أجل تكوين أصول دقيقة خاصة بالبيان العربي ، وكانت صحيفة "بِشر بن المعتمر"ت210" التي أوردها "الجاحظ" في مؤلفه "البيان والتبيين" خير دليل على ذلك . [2] فقد تحدث فيها هذا الأخير على الشروط الأساسية التي ينبغي التقيد والاعتداد بها عند كل متكلم من حسن الاستعداد للكلام، واستخدام عبارات جميلة واضحة لا لُبس فيها وملائمة للأغراض والمعاني وطبقات السّامعين ،أي تتويج المقام المؤطّر للعملية التّواصلية، واعتباره دعامة مهمة ينبغي الإحاطة بها في عملية صنع الإستراتيجيات الكلامية .

أورد "الجاحظ" في مؤلفه "البيان والتبيين" أنّ "بشرا" ألقى بها الصحيفة إلى مجموعة من فتيان المعتزلة حينما مرَّ عليهم وهم بمجلس يتعلمون فيه أصول الخطابة ، فدعاهم إلى ضرورة إقامة الوئام التناسب المطابقة بين الكلام والمقام المتحدث فيه، حيث أكد على أنّ « مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ،يجب لكل مقام مقال.» [3] فشرف المعنى لا يرتبط بكون المعنى من معاني الخاصة، كما أنّه المعنى لا يكون وضيعا ساقطا إذا كان من معاني العامة، بل إنّ الهدف إلا باستيفاء الكلام على إعتباره وهو شرط موافقة الحال والمقام والمتحدث فيه، وإذا كانت البلاغة العربية حاملة لهذا المقوم ذو البعد النّفعي ، فإنّه لمن الممكن القول : إنّ هذه

(1) ينظر جميل عبد المجيد، البالغة والإتصال، دار غريب للطباعة ،القاهرة ، دط،،2000،ص:105.

(2) ينظر شوقي ضيف:البلاغة تطور وتاريخ،ص:33.

(3) الجاحظ:البيان والتبيين،ج1ص:136.

الخاصية التي تُلحُّ على ضرورة اقتران القول البليغ «بانتفاع المستمع. »[1] تتماثل إلى حدٍّ بعيد من حيث المنحى الذي تنحوه التّداولية، حيث اهتمت هذه الأخيرة بضرورة جني الفائدة والمنفعة من الكلام، لدرجة أنّها ترجمت في العديد من الترجمات بمصطلح "النفعية".[2]

كما تحدث "بشر بن المعتمر" في موضع آخر عن المعنى ،ولكن في إطار أخر يوحي من خلاله الخطيب (المتكلم /البليغ) إلى انتقاء واستعمال الكلمات وعبارات وجمل المناسبة للأحول والمقامات حيث يقول :« ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المسّتمعين ،وبين أقدار الحالات، فيجعل من كل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسِّم أقدار المعاني ،ويقسِّم أقدار المقامات ،وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات .»[3] يتضح من خلال هذا النص أنّ للبلاغة ثلاث أركان ،تعتبر بمثابة أولويات لا ينبغي التغاضي عنها وهي: اللّفظ والمعنى ومطابقة مقتضى الحال، فبمعرفة أقدار الحالات والمستمعين، يتم إنتقاء معاني وألفاظ تتناسب مع تلك الحالات.

وعليه يصبغ الخطاب البلاغي العربي، صبغة إستراتيجية تداولية تأثيرية، باعتبار أنّ هذا التناسب (التلاؤم) الحال على مستوى الأركان الأخيرة هو عِلة التأثير على المتلقين والمحقق لغاية الأدب.[4]

كما يؤدي بنا هذا الطرح إلى استحضار عنصر تداولي أساسي وهم في المقاربات التّداولية المعاصرة ، إعتبره "سورل" من بين الشروط الملائمة، وتتحقق هذا الأخير حيث يسعى المتكلم جاهدا التأثير في السّامع الفعل.[5]

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج2،ص:08.

[2] ينظر: ميجان الرويلي و سعد البازغي،دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا ،المركز الثقافي الأدبي،لبنان،ط2،2000،ص:100.

[3] الجاحظ ،البيان والتبيين،ج1،ص:138، 139.

[4] ينظر:بدوي طبانة:البيان العربي،دارا لمنار،جدة ودار الرافعي،الرياض ،ط7، 1988،ص:74.

[5] ينظر:محمود أحمد نحلة ،أفاق جديد في الحث اللغوي المعاصر،ص:48.

11- الفهم والإفهام:

إنّ "اللغة" عند "الجاحظ" خاصية من الخصائص الاجتماعية عند الإنسان، ومن ثم كان الغرض الأسمى عنده هو كيف يصل الفرد بلغته إلى مستوى البيان أو الإفهام إن كان متكلما ،وإلى مستوى التبيين أو الفهم، إذا كان مستمعا ؟ ! (1)

اعتنى "الجاحظ" في بلاغته بمبدأ "الإفهام". ففي تعريفه الشهير للبيان الذي أورده في "البيان والتبيين" قال:«البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضَيَّ السّامعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصولِهِ كائنا ما كان ذلك البيانُ، ومن أيِّ جِنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدارَ الأمرِ والغايةَ التي يجري إليها القائل والسّامع، إنّما هو الفهمُ ولإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.» (2)

من تعريف "الجاحظ" للبيان تتبيَّن لنا« العلاقة بين الحجاج والبيان، إذ يمكن أن نعده من البحوث المهمة في الحجاج، وذلك للارتباطات الآتية: الكشف عن المعنى ويكون ذلك بدليل، الفهم ، والإفهام ،والغاية من الكلام وهتك الحجاب وهذا يعني الإقناع والإفحام ،ومجمل هذه العناصر تكون عملية حجاجية بين فعلي الإنتاج والتلقي. (3)

وفي موضوع آخر يقول "الجاحظ": «قال الله تبارك وتعالى:« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم.» لأنّ مدار الأمر على البيان والتبيين ،وعلى "الفهم والإفهام"، وكلما كان الإنسان أبين كان أحمد كما انه

---

(1) ينظر عمارية حاكم، نظرية التواصل عند الجاحظ، مجلة دراسات في الترجمة وتحليل الخطاب ،جامعة لغرور ، خنشلة ،العدد:1، 16 أفريل 2016،ص:159.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص:76

(3) عباس حشاني ،خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي،علم الكتب الحديث،إربد ،الأردن ،2013، ص:30.

كلما القلب أشد استبانة كان أحمد،والمفهم لك، والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلاّ أنّ المفهِم أفضل من المتفَهِم [...]» [1]

نخلص من قول "الجاحظ" هذا أنّه جعل كلمة "البيان" مرادفة لكلمة "التواصل" ذلك أنّه يشترط في البيان أن يحقق شيئين إثنين هما حسن البيان وحسن التبيين ،أو "الفهم والإفهام" . وهو في صلب نظريات التّواصل الحديثة. [2]

وترتبط قضية "الفهم والإفهام" بوظيفة المتكلم السّاعي إلى إظهار الخفي وتوضيحه للسّامع، بالاستعانة بكل الوسّائل اللّسانية والإشارية لتحقيق الفهم، وعليه تكون الخاصية اللّسانية للبيان كونه تعليميا علميا، تحقق التّواصل الفعال والإفادة بين المخاطب والمخاطب، وربما قارب هذا المفهوم في بعده التبليغي الغرض التّداولي للخطاب التّواصلي في المقامات المختلفة من وجهة نظر حديثة. [3]

وينقل لنا "الجاحظ" قول "الإمام إبراهيم بن محمد" حيث قال :« يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السّامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى النّاطق من سوء فهم السّامع.» [4]وفي هذا السّياق ذهب "الجاحظ" إلى ضرورة التركيز على مقصد أدبي مهم يتمعن في إفهام المخاطب، وإبلاغه المحتوى الرسالة من لدن المرسل التي وظائفه الإبلاغية لتحقيق المقصد الأسمى المتمثل في البيان، ولعله الغرض الأسمى الذي تحرص التّداولية المعاصرة على تحقيقه في الخطابات المنجزة. [5]

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1،ص:11، 12.

(2) ينظر:نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي عند الأصوليين،بحوث ودراسات إسلامية المعرفة ،السنة: الرابعة عشر ،العدد :45،خريف 2008،ص:161.

(3) ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:191.

(4) الجاحظ ، البيان والتبيين،ج1،ص:87.

(5) ينظر، محمد أديوان ،نظرية المقاصد بين حازم القرطاجي ونظرية أفعال اللغة المعاصرة ،مجلة الوصل ،كلية الآداب، جامعة تلمسان، عدد:1،1994، ص:37.

فالبيان الإفهام الذي قال به "الجاحظ" هو الوسيلة التي يتم بها التّواصل بين شخصين فيقول:« فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحتَ المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع.» [1] يدعو "الجاحظ" هنا إلى توظيف كل الإمكانيات والتقنيات للوصول إلى مرحلة "الفهم والإفهام".

يدعو "الجاحظ" في موضع آخر مراعاة الخطيب حال المرسل إليه ومنزلته فيقول:« فمدار الأمر على إفهام كل قوم بمدار طاقة فهم، والعمل عليهم على أقدار منازلهم.» [2] أي حسب مكانتهم الاجتماعية، وحسب معرفتهم باللّغة ،لأنّ ذلك من شأنه أن يُعيق إفهام المتلقي وتحقيق التواصل.

نلخص مما عرضناه سابقا: أنّ التّواصل عند "الجاحظ" قائم على ركنين أساسين هما "الفهم والإفهام" أو كما عبر عنهما من خلال عنوان كتابه "البيان والتبيين".

12- اللُّغز في الجواب:

خَصص "الجاحظ" لفكرة "اللُّغز في الجواب" بابا كاملا في جزء الثاني من كتابه "البيان والتبيين" و"اللُّغز في الجواب" هو لغز يجده السّائل في جواب المسؤولّ؛ أي أنّ السّائل يستفسر عن شيء ما، فيجيبه المسؤول عن سؤاله بما لم يتوقعه فيكون في جوابه نوع من اللُّغز.

وقد ساق في هذا الباب الكثير من الأمثلة والشواهد لهذا النوع مثل قوله:«قالوا: كان الحطيئة يرعى غنما له ،وفي يده عصا ، فمر به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟قال عجراء من سلم، يعني عصاه ،قال :إنّي ضيف

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين،ج1، ص:76.

(2)نفسه،ج1، ص: 93.

فقال الحطيئة :للضيفان أعددتهما.»[1] فالسائل هنا تلقى جوابا غير الذي طلبه فقد قصد "الحطيئة"بجوابه أن ينبهه على أنّه هو الأولى بالسؤال منه، وشيء هناك ما يدعو إلى السؤال عن العصا.

ومن الأمثلة التي ذكرها في هذا الباب ما رواه أنّ:« أزهر بن عبد الحارث أتاه رجل من بني يربوع فقال: ألا أدخل؟ قال: وراءك أوسع لك.قال :قد أحرقت الشمس رجلي ،بل عليهما تبردا، فقال يا آل يربوع، قال ذليلاً دعوتَ، يا بني دَريص، عاما أوّل جله فأكلتم جلتكم ،وأغرتم على جلة الضيفان.»[2] يتجلى هنا تلقي المخاطب والسّائل –كليهما – جوابا بغير طلبهما، وليس الغرض هنا التنبيه إلى شيء أخر، ولكن المقصود هو الإغاز في جواب المخاطب والسّائل.

وليس المقصود بالألغاز –في هذا الباب– هو التعمية والإبهام، ولكن المقصود هنا هو الجنوح بكلام المخاطب والسّائل عن غير قصده، وصرف كلمه إلى معنى آخر لغرض من الأغراض، التي تحددها المقام والسّياق كاحتقار السّائل وعدم الاهتمام به في قول " الحطيئة"، والإعراض عن المخاطب وتسفيهه في كلام" أزهر". [3]

وقد ذكر "ابن رشيق" "اللُّغز" وأدخله في باب الإشارة فقال: «ومن أخفى الإشارات وأبعدها اللُّغز وهو أن يكون للكلام ظاهر مجيب لا يمكن، وباطن ممكن عجيب.»[4] "فابن رشيق" يوضح بأنّ "اللُّغز" هو علم الوضوح بالمعنى وأعطاه إشارة تظهره.

نخلص إلى أنّ "الجاحظ" يرى في "اللُّغز" بلاغة، وذلك في طريقه تصوير المتكلم للمعنى، مما يثير إعجاب الملتقى.

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج2،ص :147.

(2) نفسه، ص : 149،148.

(3) ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص :108.

(4) أبي الحسن بن رشيق القيراواني، العمدة في الصناعة الشعر ونقده ،ج1،دار الجيل ،لبنان ،ط5، 1981،ص :307.

13- الحَبْكُ والسَّبْكُ:

من بين المفاهيم اللّسانية التي نجد لها أثر في كتاب "الجاحظ" الثنائية النصية: "السَّبك والحَبك" ، وهما من « أهم تلك المقومات النصية المشتركة التي وقف عليها اللّسانيون، والبلاغيون من القرن الثالث الهجري». (1)

وقد ذكر " الجاحظ" ما يدل على اهتمام النقاد العرب بعملية "السَّبك" فقال:« ورأيت عامتهم فقد طالت مشاهدتي لهم لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخيّرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السّهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السّبك الجيد.» (2)

ولعل العرب يقصدون "بالسَّبك" عملية ترتيب الألفاظ في النص وربط بعضها ببعض، حتى لا يستطيع أحد أن ينقل لفظ من موضع إلى أخر.

كما يقول أيضا:« أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أُفرغ إفراغا واحدًا، وسُبكَ سَبكًا واحدًا ،فهو يجري على اللّسان كما يجري الدِهان .» (3)

لقد أدرك اللّغويون العرب أنّ النص يجب أن يكون وحدةً واحدة، وعبروا عن ذلك بعبارات منها جودة السَّبك، ويفرغ إفراغا واحدا فالشعر الجيد هو الذي يجري على اللّسان ،سلس متماسك الأجزاء ،تماما مثل الدهن والدِهان الذي يجري فلا ينفصل، ولا يفترق بل متلاحم دائما. (4)

(1) محمد العبد، حبك النص،مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،العدد:54،السنة: 1994،ص: 54.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين ،ج1،ص :67.

(3) نفسه،ج4،ص :24.

(4) ينظر:حسن محمد عبد المقصود، تماسك النص الأسس والأهداف، مركز تنمية العلوم واللغات، جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية،بروني،دار السلام،كلية التربية،جامعة عين شمس ،مصر،ص :04.

وقد إستطاع "الجاحظ" أن يلامس هذين المفهومين، ولو بطريقة غير مباشرة ونستشف ذلك عما رواه "عمر بن لجأ" إذ قال لأحد الشعراء : « أنا أشعر منك ،قال :وبما ذلك؟ قال لأنّني أقول البيت وأخيه، وأنت تقول البيت وابن عمه.» [1]

فالدّلالة في هذا السّياق صريحة، من حيث أنّ « الأخوة والعمومة إشارة إلى درجة قوة الترابط الدّلالي، بين سلاسل المنطوقات المتواليات، مما يصير به النص كاملا موحدا .» [2]

ويعرّف المحدثين "الحبك" بأنّه الصورة التي تكون عليها هيئة المفاهيم ،والعلاقات التي تحت سطح النص مترابطة بشكل منطقي ،بحيث لا يتغير هذا الترابط الدّلالي في مستوى من مستوياته ،مما يجعل التواصل بين المخاطب والمتلقى ،متعذرا على مستوى ما أريد أن يقال ،لا على مستوى كيف قال وعبّر.

أمّا "السّبك" فمقصور على تحقيق الترابط اللّغوي ،أو الانسجام على مستوى الكتل النطقية، أو السلاسل الجملية ،بحيث لا يشعر القارئ ،أو المسّتمع بأية انقطاعات، أو فجوات فيما يلقى عليه ،مما يحول بينه وبين مضمون الرسالة. [3]

نلخص مما سبق عرضه أنّ "الجاحظ" أدرك أنّ النص يجب أن يكون كتلة واحدة مترابطة ،وقد عبَّر عن ذلك بالأمثلة والشواهد المنثورة في "بيانه وتبيينه"،كما ذكر بعض أسس التّماسك النصي، التي أقام عليها العلماء المحدثون أصول نظرية تماسك النص. [4]

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 206

(2) محمد العبد، حبك النص، ص: 59.

(3) ينظر: يوسف منصر ،الجاحظ في الخط اللساني العربي،جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد،: 3،2، جانفي ،جوان، 2008،ص :10، 11.

(4) ينظر : حسن محمد عبد المقصود، تماسك النص الأسس والأهداف ،ص: 40.

14- الإبتداء:

لقد تفطن "الجاحظ" إلى مفهوم آخر ينتمي إلى الثقافة اللّسانية المعاصرة، وبالأخص لسانيات النص، وهو مفهوم "الإبتداء"، بل قد إعتبر البعض منهم"الجاحظ" أقدم الإشارات إلى بلاغة "الإبتداء" في إشارة ضمنية لإحرازه السبق. [1]

وفي هذا الصّدد تقع إشارة "الجاحظ" إلى مفهوم "الإبتداء" في قوله عن :« النّاس موكلون بتفضل جودة" الإبتداء" ،وبمدح صاحبه ،وأنا موكل بتفضيل جودت المقطع وبمدح صاحبه .» [2]

وقد أورد في "بيانه وتبينه" أيضا نصا "لابن المقفع" من أنّه جعل البلاغة اسما جامعا لمعان تجري في وجوه كثيرة ، وذكر من هذه الوجوه ما يكون في "الإبتداء"، [3]ولنا في هذا الإطار أن نستنتج فاعلية الإبتداء كعتبة نصية خاصة إذا ارتبط بحسب "الجاحظ" وقراءة بالنص البليغ. [4]

و"الإبتداء" في المنظومة اللّسانية النّصية :« الوحدة البنائية الأولى من النص ،وهي وحدة سمعية ومعنوية تفتح للخطاب قناة الإتصال .» [5] ويكتسب هذا المفهوم أهميته من المنظور الوظيفي، أو واقع الاستعمال اللّغوي ،من حيث توقف شد المستمع وجره إلى بهو النص ،على الجملة الافتتاحية ، إذا منها ما قد لا يثير فينا ذلك الوقع، أو الأثر بما يكفي لأنّ نتواصل بشكل فعال ،ومتفاعل مع النص، ومنها ما أسماعنا بلغته وجودة تأليفه ويشد الفكر بلطائف مداخله. [6]

---

[1] ينظر: محمد العبد ، حبك النص،ص :65.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين،1،ص:112.

[3] ينظر :محمد العبد ،حبك النص:65.

[4] ينظر يوسف منصر ، الجاحظ في الخطاب اللساني،ص:12.

[5] محمد العبد ،حبك النص، ص:65.

[6] ينظر: يوسف منصر،الجاحظ في الخطاب اللساني،ص،12.

15- الحَذْف:

إنّ "الحَذْف" من – المسالك – التي لا يهتدي إليها إلاّ الخاصة من أرباب البيان، وصناعة الكلام "الجاحظ" في حديثه عن "الحذف" لم يغفل فضل هذا الباب ، ودقة مسلكه، وماله من المالحة والطّرافة،وعظيم لأثر في نفوس السّامعين ، وقد خصص "الجاحظ" "للحذف" بابين عقدهما في كتابه ، جعل الأول بعنوان :«باب ما قالوا من الحديث لحسن المحذوف الموجز.» ،وسمي الثاني: «باب من الكلام المحذوف .» [1]

تحدث "الجاحظ" عن "الحذف" وأثره العظيم في نفوس السّامعين، فقد نبّه إلى ذلك في قوله: « احذفوا الحديث كما يحذفه سلم بن قتيبة، ويزعمون أنّهم لم يروا محدثا قط صاحب أثارٍ كان أجود حذفا وأحسن اختصارًا من سفيان بن عيينه.» [2]

"فالحذف" غرض يقصد إليه الآباء وأرباب الكلام، على اختلاف صناعاتهم، وقد كان من الأدباء "سلم بن قتيبة" يُضرب به المثَل في ذلك كما ضرب المثل "بسفيان بن عيينة" "والحذف" هو تقليل اللّفظ وتكثير المعنى؛ أيْ أنّنا نضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل، شريطة أن تعنى بالغرض المقصود ،مع الإبانة والإفصاح ،وهذا يعني أنّ "الحذف" من الفعاليات الاقتصادية الخاصة بالكلام. [3]

وقد يجري "الحذف" على عدة وجوه نذكر منها:

- **حذف المبتدأ**: يعرض "الجاحظ" لجملة من أشعار المتقدمين ،تضمنت "حذف المبتدأ" كقول الأخطل: [4]

شُمْسٌ إذَا خَطِلَ الحَديثُ أوانِسٌ يَرقُبنَ كلَّ مُجذَّرٍ تِنبَالِ .

---

[1] ينظر :فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ ،ص:201.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين،ج1، ص:174، 175.

[3] ينظر : واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه في اللسانيات،جامعة وهران ،2011-2012،ص:248

[4] الجاحظ،البيان والتبيين، ج1،ص:279.

أُنُفٌ كأنَّ حديثهُنَّ تَنادُمٌ بالكأسِ كلُّ عَقيلةٍ مِكْسَالِ.

و" المبتدأ المحذوف" في البيتين السّابقتين هو:" هن" شمس، و "هن" أنف. وحذف "المبتدأ" يكون لدواعي تختص بالمتكلم ورغباته المتعلقة بالتنويع في الكلام، حسب مقتضيات الأحوال لفهم المخاطب ،وعمله بمضمون كلامه. بمعنى أنّ السّبب الرئيسي وراء حذف ،أو ذكر "المبتدأ" يعود إلى المقام و حيثياته.

ومن هذا المنطلق نلمس أنّ أسلوب الحذف " حذف المبتدأ" من الأساليب البلاغية العربية التي تنطلق في تشكلها النّسقي من اعتبارات تداولية "استعمالية" بالدرجة الأولى، حيث تأخذ بعين الاعتبار الجو النّفسي الذي يحيط بالإطار التواصلي. [1]

– **حذف الخبر**:وفي الباب الثاني يعرض "الجاحظ" لمجموعة من الكلام المنثور تضمن" حذف الخبر" منها ما رواه:« أنّ رجلا كلم عمر بن عبد العزيز في حاجة ،وجعل يمت بقرابة،فقال عمر: فإنّ ذاك، ثم ذكر حاجته،فقال:لعل ذاك، لم يزده على،أن قال :فإنّ ذاك ولعل ذاك ،أيْ :أنّ لك كما قلت ،ولعل حاجتك تقضي.» [2]

– نجد "عبد العزيز" عندما حذف جزء من كلامه ،كان يفترض أنّ المستمع الرجل على دراية بقصده ؛أي أنّ للمتلقي كفاءة تداولية (Complétence Pragmatique) تؤهله لإدراك مواضع الحذف، انطلاقا من استدلالات قائمة على استثمار معطيات السّياق اللّغوي وملابسات المقام. [3]

نلخص مما سبق أنّ قضية "الحذف " في الدّراسات البلاغية إنّما تلتقي مع مفهوم "الإفتراض المسبق" (Présupposition) المهتم بدراسة المعارف المشتركة بين الباث والمتلقي،أو بين ما ينبغي أن يكون

(1) ينظر:جان الخفاجي، مراعاة المخاطب في النحو العربي ،دار الكتابة العلمية، لبنان، ط1،2008،ص:183.

(2) الجاحظ،البيان والتبيين ، ج2،ص:278.

(3) ينظر محمد حسنين أبو موسى ،دلالات التراكيب،دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، منشورات جامعة قاريونس ،مصر،ط1، 1997،ص:123.

معلوما بينهما قبل المباشرة بالعملية التّخاطبية التّفاعلية (Interactine)، بصيغة أخرى : هي ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلما بها لدى كل أطراف المحادثة،ولذلك فالمتكلم يتلفظ ويوجه حديثه إلى المتلقى على أساس أنّه مُدركٌ لديه ،وأنّ المتلقي يتمتع بكل المؤهلات الحركية والذهنية التي تمكنه إدراك قصد المتكلم.[1]

16 – البؤرة:

تحدث "الجاحظ" في "البيان والتبيين" عن إصابة عين المعنى بالكلام ،فقال :« فُلان يفلُّ المحزَّ ويصيب المفصل، أخذوا ذلك من صفة الجزار الحادق، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز.»[2] فمصطلح" عين المعنى " مصطلح تراثي في "البيان والتبيين " يقابل مصطلح "البؤرة " في اللّسانيات الوظيفية. والتي تُعرّف بأنها المعلومة الأكثر بروزا في الخطاب.[3]

17– الإطناب:

يعتبر "الإطناب" من الآليات البلاغية المندرجة تحت لواء علم المعاني، وهو من الأساليب الفنية التي يمكن الحكم بواسطتها، على مدى امتلاك المتكلم القدرة على التحكم الدقيق في اختيار المواضع، التي يكون فيها "الإطناب" أجدر بالتوظيف من الإيجاز، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه.[4]

و"الإطناب" عند "الجاحظ" هو التعبير عن المعاني بماكثر من الألفاظ، وزاد عن حاجة هده المعاني.[5] يقول "الجاحظ" في "التِرْدَاد" وهو أحد أنواع "الإطناب": « وجملة القول في الترداد أنّه ليس فيه حد ينتهي إليه ولا يؤتى على وصفه، وإنّما دلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص.»[6]

---

(1) ينظر: جورج يول وجورج براون، تحليل الخطاب،ص:37.

(2) الجاحظ،البيان والتبيين ،ج1،ص96.

(3) ينظر: أحمد المتوكل ،الوظائف التداولية ،ص:28.

(4) ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 171.

(5) ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص:213.

(6) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 105.

ونلخص من هذا أنّ المتلقي هو الأساس الذي يمكن من خلاله توجيه تشكيل الخطاب البلاغي، الحسن المقبول، وهذا الأخير الخطاب مرهون باعتبارات تداولية بالدّرجة الأولى قوامها الاهتمام بالملتقي وحالاته وأوضاعه الفكرية.

18- الأفعال الكلامية:

تعتبر معالم طرح نظرية الفعل الكلامي ذات الانتماء العربي، وتتمثل هده الملاحظة في فهم المقصد الذي يعمل المتكلم على تكوينه قبل الشروع في تأسيس العملية الحوارية، التي يروم من وراءها هذا الطرف الفاعل التّوصيل وكذلك التأثير.

فتوفر المتكلم عن نمطين من القصد: فالأوّل ثابت والثاني متغير، وضمن هدا الإطار يتخذ المتكلم عُدّته من: «الوسائل الكلامية وغير الكلامية، كي يتسنى للسّامع إدراك ما يريده.» [1] وعليه فالمراتب التي يتموضع ضمنها السّامعون تتفاوت من شخص لآخر، ولذلك أصل عند من سبق من العلماء الأجلاء. إذا نجد كتاب "البيان والتبيين" ينقل لنا عبره "الجاحظ" ما دونه "بشير من المعتمر"، وعرضه في مقام خاص بذلك وممّا ورد فيها، وله العلاقة بالبحث قوله :« وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها ،وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ،ولكل حالة من دلك مقاما، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني ،ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المسّتمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنّه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام، واصفا، أو مجيبا، أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين.» [2] وبالتالي لم يكتفي التركيب اللّساني الذي حملته الصحيفة باستهداف الفاعل الحقيقي للحوار أي المتكلم، بل تعددت إلى الطرف الثاني وهو المخاطب الذي يتم به خيط التّوصيل، وفي كلا الأمرين تتحقق الجمالية اللّغوية التي تستمد جمالها من الاستعمال الوظيفي.

---

[1] أحمد محمود نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 89.

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 136.

19– آفات البيان: (Articalatory Defect)

لعلّ اهتمام "الجاحظ" بقضية البيان العربي، دفعه إلى استبعاد كل الشّوائب التي تُخلُّ بفصاحة وطلاقة الخطيب ، والتي يسميها "الجاحظ" بآفات البيان أفات اللّسان/ الحُلة، والتي تعرف "بأمراض الكلام" عيوب النّطق في الدراسات الحديثة. حيث نجد "الجاحظ" يذكر بعض العيوب البيانية مثل: العيّ والحَصْر، البُهْر، وهذا ما سنتناوله في هذا المبحث، لنتحدث فيما بعد عن العيوب اللّفظية.

أ– العيوب البيانية:

– البُكىء:

أورد "الجاحظ" مصطلح "البُكىء" في "بيانه وتبيينه" قائلا:« والبُكئ عند الخطباء سبيل المسهب الثرثار والخَطل المِكثار.» [1]

يُطلق هذا المصطلح على الخطباء الذين يعجزون عن النهوض بأعباء الخطابة، [2] ؛وبالتالي في هذه الحالة يكون عيبا بيانيا، لأنّه سيؤدي حتما إلى الإخلال بفصاحة وطلاقة المتكلم.يوافق هذا المصطلح تداوليا مصطلح "الإطناب" الذي يُعرف بالإطالة في الكلام .بعد إيصال القصد.

– البُهر:

وهو أحد العيوب البيانية التي تلازم الخطيب عند عجزه عن شرح وتفصيل المعاني، [3] ويُبيّن "الجاحظ" ذلك من خلال روايته لبيت شعري عن أحد الشعراء:

مَليّ بِبُهرٍ والتفاتٍ وسَعِلَةٍ　　　وَمَسِحَةِ عَثْنُونٍ وَ فَتْلِ أصابعِ [4]

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 144.

(2) ينظر: صهيب محاسيس، عيوب الكلام في التراث اللّغوي العربي،دار الحامد للنشر والتوزيع الأردن،ط1، 2012، ص: 154.

(3) ينظر: سمية المنصور، عيوب الكلام لما يعاب في الكلام عند اللّغويين العرب، ص: 28.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 04.

إذن مصطلح "البُهر" يطلق على كل من ينتابه الخجل ويعتريه الاضطراب عند مواجهة حشد من النَّاس. (1)

يطابق هذا المصطلح في علم النّفس "رُهاب الكلام" أمام الجمهور ، أمّا تداوليا فهو متعلق بعدم بقدرة المتكلم على إيصال المقاصد.

- العَيّ والحَصْر:

لقد أدرك "الجاحظ" هذان العيبان البيانيان، وتعرض لهما في كتابه بقوله: « اللّهم إنّا نعوذ بِك من فِتنة القول، كما نعود بِك من فِتنة العمل، ونعود بِك من التكلّف، لما نحس كما نعود بِك من العَيّ والحَصر، وقديما ما تعود بالله من شرّهما، وتضرّعوا إلى الله في السلامة منهما.» (2)

ولعل ما يوضح لنا أكثر هذان المصطلحان قوله:« إنّما وقع النّهي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العَيّ على كل شيء قَصَّر من المقدار، فالعَيّ مذموم والخَطل مذموم.» (3)

ويقصد بمصطلح العَيّ (Aphémie) في اللّسانيات التَّداوليّة : فقدان القدرة على النّطق نتيجة لمرض عُضوي، أو نَفسي، وله أنواع:

- العيّ الكتابي (Agraphie) : وهو فقدان القدرة على الكتابة، وهي متعلقة بمهارة الكتابة.

- العيّ القرائي (Alexie) : وهو فقدان القدرة على القراءة، وفيها تتجلى مهارة القراءة. (4)

---

(1) سمية المنصور، عيوب الكلام، دراسة لما يعاب في الكلام عند اللّغويين العرب، حوليات كليات الآداب، جامعة الكويت، الحولية:7، 1986،ص:28.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 03.

(3) نفسه، ص: 202.

(4) ينظر: محمد الهادي بورطان، المصطلحات اللّسانية والبلاغية والأسلوبية والشعرية، دار الكتاب الحديث، القاهرة،دط،2010،ص:60.

نستنتج أنّ هذه العيوب التي ذكرها "الجاحظ"، ليست عيوبا من عيوب النّطق بالحروف والكلمات، بل هي عيوب بيانية، تُنقص من بلاغة وفصاحة المتكلم وخطابه.

ب- العيوب اللّفظية:

لقد اقترب "أبو عثمان" في بحثه عن الأمراض اللّغوية، وطبيعتها في البحوث اللّسانية المعاصرة القائمة على المعايير اللّسانية البيولوجية، ولاسيما المعايير اللّسانية النّفسيّة،التّي ترتبط بالتّداوليّة ، أو ما يعبّر عنه بالمصطلح اللّساني "اللّسانيات البيولوجية" (Biological Linguistes). [1]ومن بين الأمراض اللّغوية التي تعرض لها "الجاحظ" بالدّقة والتفصيل التَعْتَعَة، التَّمْتَمَة، الحُبْسَة، اللُّثْغَة...الخ.

- **الحُبسة**: (Aphasia)

وهي من الأمراض اللّغوية التي اهتم بها علم النّفس عامة، وعلم النّفس اللّغوي خاصة، وعلى حد تعبير "الجاحظ": « يقال في لِسانه حُبسة، إذاكان الكلام ثقيل عليه، ولم يبلغ حدَّ الفَأْفَاءْ والتَّمْتَام.» [2]

و"الحُبْسَة" هي نوع من الإضطراب اللّغوي، الذي يحدث نتيجة إصابة المراكز المسؤولة عن إنتاج اللّغة، في النّصف الأيسر من الدماغ، نتيجة الجلطات أو الضربات المباشرة على الرّأس، تؤدي إلى فقدان جُزئي، أو كُلي من إنتاج الكلام. [3] وهي أنواع: [4]

- حبسة التوصيل: (Conduction aphasia)

- حبسة التسمية: (Anomicaphasia)

---

(1) ينظر: جاسم علي جاسم، علم اللّغة التطبيقي في التراث العربي، الجاحظ أنموذجا، ص: 305.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:39.

(3) ينظر: صالح بلعيد، دروس في اللّسانيات التطبيقية، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ط 7، 2012، ص: 177.

(4) ينظر: مصطفى فهمي، أمراض الكلام في علم النفس، دار مصر للنشر، مصر، ط 5، ص: 66،63 .

- حبسة التعبيرية (Expressive aphasia)

- الحُبسة الحسية (Sensoryaphasia)

- الحُبسة الكلية (Wohlolisteaphasia)

وهذه الأمراض ترتبط تداوليا بقدرات المتكلم في إيصال القصد المرجو، والرسم الموالي يوضّح أنواع الحُبسات عند "كريستيان تمبل" (Christian Tumble) في الدماغ البشري.

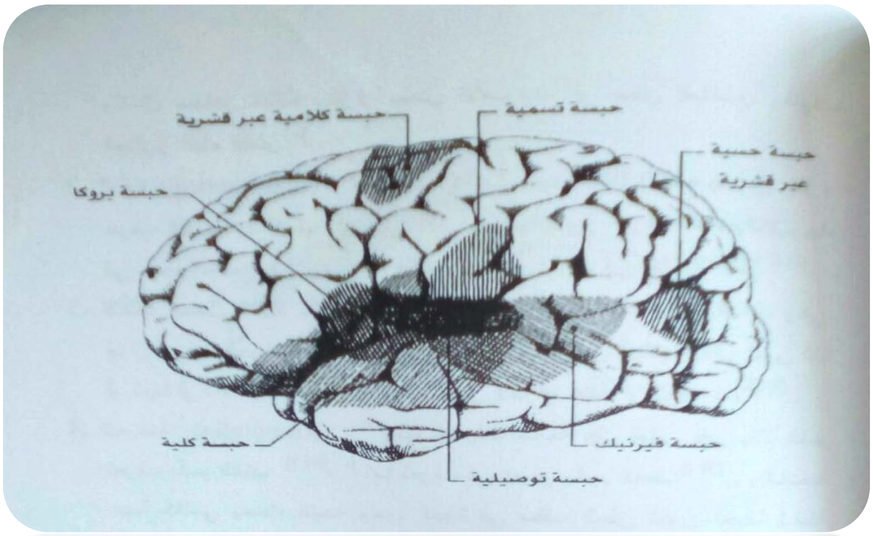

إنّ دراسة "الحُبسة" حسب رأي "جاكبسون" يجب أن تأخذ منحنى لسانيا، مهما تنوعت الميادين التي تدرسها، لأنّ الحدث الكلامي هو المتأثر في حال الإصابة بالحُبسة، كما أنّ اللّسانيات تِعُدُّ الكلام المنجز نتيجة "الحُبسة" وحدات لغوية قابلة للدراسة والتحليل.[1]

ومن المصطلحات التي يقترب مفهومها من الكفاءة االلّغوية لدى المتكلم من "الحُبسة" ، "العُقْدة".

---

(1) ينظر: صهيب سليم محاسيس، عيوب الكلام في التراث اللّغوي العربي، ص: 45.

- العُقْدة:

و يورد" أبو عثمان" في حديثه عن "العُقْدة"، دعاء "موسى عليه السلام" والذي كان يُعاني عُقْدَة في لِسانه، إذ يقول: [1] « ومن الدّليل على أنّ الله حَلَّ تلك العُقْدة وأطلق ذلك التّعقيد قوله « قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي.» [2]

إنّ "العُقْدة" من الآفات التي إذا أُصيب بها اللّسان جعلت النُّطق عَسيرا، إلى حَدِّ المستحيل، ويتحول معها الكلام إلى مقاطع صوتية مُبهمة؛أي تداوليا لا يستطيع المصاب بها باستعمال الكلام استعمالا نفعيا ،يكاد لا يُفصح عن حاجته، ولا تُشير إلى معنى، وزالت عنه مميزات الفصاحة وسيمات البيان. [3]

- الفَأْفَأة: (Stammerige)

لاشك أنّ الأقوال التي وردت على لِسان "الجاحظ" تُوحي بأنّ "الفَأْفَأة" تدل على تكرار لحرف "الفاء" في اللّفظ الواحد، وقد عبّر "أبو عثمان" عن ذلك بقوله: « فإذا ما حَكى الفَأْفَأة، فكأنما قد جُمعت كُل طُرفة في كُل فَأْفَـأْ في الأرض في لِسان واحد.» [4]وهذا الإضطراب الكلامي يشبه"التأتأة" إلاّ أنّه يختص بتكرار "الفاء"،وهذا العيب يُعيق المتكلم على إبلاغ خِطابه ومَقصده.

---

[1] الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص:08.

[2] سورة: طه، الآية: 27/26/25.

[3] ينظر: جاسم علي جاسم، علم اللغة التطبيقي في التراث العربي، ص: 229.

[4] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 96.

- التَّتَعْتُعْ:

يورد "الجاحظ" للأصمعي قوله في "التَّتَعْتُعْ" فيقول: « إذا تَتَعْتَعَ اللِّسان في التَّاء فهو تَمتَام، وإذا تَتَعْتَعَ في الفاء فهو فَأْفَاءْ.» (1)

بناء على هذا القول، فإنّ مصطلح "التَّتَعْتُعْ" يدل على تكرار في أحد الحروف، فإذا كان التّكرار على مستوى حرف "التاء"، فيكون المتكلم" تمتام"، وإذا رَدَّدَ في حرف "الفاء"، فهو،"فَأْفَأْء" وفي هذا المقام يقول "الجاحظ": (2)

يا حَمْدَ ذَاتَ المنطقِ التَّمتامِ   كأنّ وَسْوَاسَكِ في اللِّمَام

وفي موضح آخر يقول: (3)

لَستُ بفأفاءٍ ولا تمتامٍ   ولا كثيرِ الهُجْرِ في الكلامِ

فالمتكلم التَمْتَام، غير قادر على الإفصاح عن حاجته، أو الإعراب عن معناه للمتلقي، وتوصيل الفحوى الخطابي بطلاقة من شأنه أن يحمل المتلقي بالعمل على ما يريده المتكلم.وهذا التأثير اللّغوي ومن بعده الإنجاز.

- الحُكْلَة:

أشار" الجاحظ" إلى مصطلح " الحُكْلَة" بقوله: « فإذا قالوا: في لِسانه حُكلة فإنّما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللّفظ، حتى لا تُعرف معانيه إلاّ بالاستدلال.» (4) "فالحُكلة" مصطلح لِساني يفسره " الجاحظ" على أنّه نُقصان في آلة المنطق وعجز اللّفظ، حتى لا تعرف معانيه إلاّ بالاستدلال.

في موقع آخر يقول "الجاحظ": (5)

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:37.
(2) نفسه، ص: 37
(3) نفسه، ص: 38.
(4) نفسه، ص:40.
(5) نفسه، ص:40.

لو أنَّني أُوتيت عِلمَ الحُكَلِ عِلْمَ سليمان كلام النّمل

وفي كتاب "الحيوان" يقول "الجاحظ": « يقال في لِسانه حُبسة، إذا كان في لِسانه ثقل يمنعه من البيان فإذا كان الثقل الذي في لِسانه من قبل العجمية، قيل في لِسانه حُكلة.» (1) "فالحُكلة" في نظره ناتجة عن تأثير لغة أعجمية على المتكلم ، حتى أنّ الكلام يثقل عليه،و بالتالي يعجز عن إيصال مقاصده.

– العُقلة:

مصطلح "العُقلة" من المصطلحات التّي استعملها "الجاحظ" للدّلالة على إحدى الأمراض اللّغوية، حيث نجده يقول: « يقال في لِسانه عُقلة إذا تَعقَّل عن الكلام.» (2) يتبين لنا أنّ مصطلح "العُقلة" قريب جدا من مصطلح "العُقْدة"فكليهما يدلان على عُسر النُّطق، "فالعُقلة" هو اضطراب النُّطق عامة من غير تخصصه بسبب معين، وبالتالي فهو مرادف "لِلَّجْلَجَة" (Stuttering) ويعرفها المحدثون بأنّها: اضطراب يُصيب تواتر الكلام وسلاسته، وانسيابه بحيث يعلم الفرد ما سيقوله تماما، إلاّ أنّه لا يكون قادرا على قوله، (3) و بالتالي يؤدي إلى ضياع القصد والهدف الخطابي للعملية التّواصلية في تداوليتها.

– اللَّفَف:

من المصطلحات التي أوردها "الجاحظ" في "البيان والتبيين" التي تدل على عيب من عُيوب الكلام "اللَّفَف" حيث قال: « قال أبو عبيدة: إذا أَدْخَلَ الرجل بعض كلامه في بعض فهو أَلَّفُ، وقيل بلسانه لَفَفْ وأنشدني لأبي الزّحف الرّاجز:

(1) الجاحظ، الحيوان، ج2، ص: 10.

(2) نفسه، البيان والتبيين، ج1، ص: 39.

(3) ينظر: صهيب سليم محاسيس، عيوب الكلام في التراث اللّغوي العربي، ص61.

كان فيه لففًا إذا نطق من طولِ تحبيسٍ وهم وأرق. [1]

وقال أيضا:« كأنّه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه، وطال عليه ذلك أصابه لَفَفٌ في لِسانه». [2]

إنّ "اللَّفَفَ" يُصيب من لا يتكلم كثيرا ويُطيل الصَّمت، فيؤدي هذا إلى ثِقل في لِسانه، فيتعذر عليه الكلام وإبلاغ حاجته،ممّا يعيق العملية التواصلية.

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 38.

(2) نفسه، ص: 38.

خاتمة

خاتمة:

ومن خلال دراستنا لمدونة "البيان و التبيين"تبيّن لنا أنّ" الجاحظ" يمثل أحد أعلام الفكر اللّغوي الأصيل،ويتضح ذلك جليا في كتابه "البيان و التبيين"الذي يمثل موسوعة عربية جمعت معارف لغوية وأدبية و بلاغية، استفاد منها كبار العلماء و الباحثين على اختلاف مشاربهم الفكرية،و قد خلصت دراستنا المصطلحية بمجموعة من النتائج نذكر منها:

-المصطلحات اللّسانية التي وظفها الجاحظ في كتابه "البيان و التبيين"،خاصة الدّلالية منها اتصفت بنظرة ثاقبة، وهي تشكل إسهاما ناضجا، وثمينا في الدّراسات التّداولية.

- ذكر "الجاحظ" بعض عيوب الكلام، أو ما يسمى بآفات البيان، وهي عيوب النّطق بالحروف والكلمات، وهذه الأخيرة تنقص من بلاغة و فصاحة المتكلم و خِطابه،حيث ترتبط بقدرات المتكلم في إيصال القصد و المعلومة.

- يُقسم البيان إلى ثلاث وظائف و هي:الوظيفة الإخبارية،و التأثيرية،و الحجاجية،و التي تشكل جوهر النظرية التّداولية في الدّراسات المعاصرة.

- أشار إلى أهمية الصّمت و قرنه بالاستماع حيث بيّن فائدته، فالصّمت هو العملية الذاتية التي يقوم بها السّامع و التي تتحول فيما بعد إلى تواصل بين طرفين خارجيين.

- لقد اعتنى "الجاحظ" بفكرة مقتضى الحال /المقام، والذي يضم كل ما يحيط بالعملية التّواصلية،من ظروف مكانية،و الموقف الذي يصدر فيه الحدث الكلامي، إضافة إلى المتكلم و السّامع معا.

- أعطى"الجاحظ" أهمية كبيرة للسّياق، و الذي يسهّل على السّامع والمخاطب في فهم الخطاب، سواء كان مكتوبا أو منطوقا.

- تنوعت مادة المدونة بين النص و الخطبة والحديث والآية، وهو وجه لتنوع الأنماط الحجاجية التي وظفها "الجاحظ"،حتى يمكن القول أنّ مدونته صارت حجة كبيرة ، تحمل كلّ ما احتواه عقله ، ودعا إليه مذهبه و احتاج إليه متلقيه في عصره.

- من المواضيع التي طرقها "الجاحظ" في بيانه و تبيينه فكرة الإيجاز، و هو جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة،و الذي يُعدّ إحدى القواعد التي بنى عليها اللّسانيون اليوم نظرية الاقتصاد اللّغوي.

ويكفي كل باحث الإطلاع على مؤلفات الجاحظ خاصة البيان و التبيين، أن يكشف بنفسه تجليات التّداولية بكل متعلقاتها:متكلم و متلقي و رسالة،و مقام،و أد وات و مقاصد، أنواع التّواصل [الخاص و العام]،و كلّ ما يمكن أن نباهي به النظريات اللّسانية الحديثة التي تم لها الاعتراف بالسّبق والتّطور،وذلك أنّ موروثنا العربي لم يجد من يترجمه إلى لغات العالم.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع:

المعاجم:

1- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة،ج3، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، 1979.

2- أزفالدو ديكرو و جان ماري سشايفر،القاموس الموسوعي الجديد لعوم اللسان،تر:منذر العياشي،المركز الثقافي،دط،دس.

3- جاك موشلار و آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الباحثين، المركز الوطني للترجمة، دار سبانترا، تونس، ط2، دس.

4- علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق:صديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر، دط، دس.

5- أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، ج1، دار صادر، بيروت، ط1، 1997.

6- الزمخشيري أبو القاسم، أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، 1966.

7- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1977.

8- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، حققه: عمر فاروق الطبّاع، مؤسسة المعارف للطباعة و النشر، لبنان، ط1، 1999.

المصادر:

9- أبو عثمان الجاحظ، البيان و التبيين، تح: عبد السلام، محمد هارون، دار الجيل، بيروت،ط7،1977.

المراجع:

10- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة ، المغرب، ط1، 1985.

11- أحمد المتوكل، الوظيفية بين النمطية و الكلية، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط،ط3، 2003.

12- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، دط، 2001.

13- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1985.

14- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة و التطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط8، 2008.

15- أرسطو طاليس، الخطابة، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار القلم،لبنان، دط،1979.

16- آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمو: سيف الدين دعفوس محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 2003.

17- أندري مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، ترجمة: السعدي الزبير، دار الآفاق،دط، دس.

18- إبراهيم أنيس دلالة الألفاظ مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر، دط، 1997.

19- أبو بكر العزاوي، اللغةو الحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.

20- أحمد حساني ، مباحث في علم اللسانيات، الجزائر، دط،دس.

21- أحمد الغزالي المستعصي،في علم الأصول،تحقيق:محمد عبد السلام عبد الشافي، دارالكتب العلمية،لبنان، ط1، دس.

22-بدوي طبانة، البيان العربي، دار المنار، جدة و دار الرافعي، الرياض، ط7، 1988.

23- تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، عالم الكتب، مصر، ط3، 1991.

24- جاس سوزان و لاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية،ج1، مقدمة عامة، ترجمة: ماجد الحمد، جامعة الملك سعود، الرياض، دط، 2009.

25- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دس.

26- جورج براون و جورج بول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد الزليطي و منير تركي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، دط، 1997.

27- جورج بول، التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010.

28- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م1، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، دط، 1983.

29-جميل عبد المجيد،البلاغة والإتصال،دار غريب للطباعة والنشر،القاهرة،دط،2000.

30- ابن حزم أبو محمد، الأحكام في أصول الأحكام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دس.

31- حسن السندوبي، آداب الجاحظ، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ط1، 1931.

32- حسن محمد عبد المقصود، تماسك النص الأسس و الأهداف، مركز تنمية العلوم و اللغات، جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية، بروني دار السلام، كلية التربية، جامعة عين شمس، مصر، دط، دس.

33- حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، فرق البحث في البلاغة و الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، اشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.

34- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي و تاريخيه، ج1، دار الجيل، لبنان، ط2، 1991.

35- أبي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر و نقده، ج1، دار الجيل، لبنان، ط5، 1981.

36- خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية،مع محاولة تأصيلية في الدرس اللغوي العربي القديم،بيت الحكمة للنشر والتوزيع،العلمة،ط2004،1 ،ص:47،48.

37- رتستسلاف أوزرنيال، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، مصر، دط، دس.

38- الزواوي بغورة، الفلسفة (نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005.

39- زوين علي، منهج البحث اللغوي بين التراث و علم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1986.

40- سبويه، الكتاب، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط1، دس.

41- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة:كمال بشير، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، دس.

42- صهيب محاسيس، عيوب الكلام في التراث اللّغوي العربي،دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن،ط2012،1.

43- شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط6، دس.

44- صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، مدخل و نصوص، صفحات للدراسات و النشر، دمشق، ط1، 2008.

45- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للطباعة و النشر الجزائر، ط7، 2012.

46- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، أدبيات الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، إشراف: محمد مكي علي،مصر، ط1، 1996.

47- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية،بيروت، ط2، 1982.

48- طه الحاجري، الجاحظ حياته و آثاره، دار المعارف، مصر، ط1، 1962.

49- عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء، دار الطليعة، بيروت، ط4، 2003.

50- عباس حشاني، خطاب الحجاج و التداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2013.

51- طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998.

52- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، دس.

53- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار و جديد الكلام ، علم المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002.

54- عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، دس.

55- عبد العزيز العصيلي، التحجّر في لغة متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط1، 2016.

56- عبد الغفار السيد أحمد، التصور اللغوي عند الأصوليين، شركة مكتبات، عكاظ، دط، 1981.

57- عبد الله صولة، نظرية الحجاج، دراسات و تطبيقات، مسكيلياني للنشر و التوزيع، تونس، ط1، 2011.

58- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2004.

59- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، ج1، تحقيق: هارون عبد السلام، دار الكتب المصرية، مصر، دط، 1933.

60- أبو عثمان الجاحظ ، رسائل الجاحظ، ترج: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

61- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان ج2، تح:عبد السلاممحمد هارون، دار الكتب المصرية، مصر، دط، 1933.

62- عز الدين اسماعيل المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت، ط2، دس.

63- عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2005.

64- عزيز الخطيب، الإعجاز البلاغي في القرآن دراسة تحليلية عند فخر الدين الرازي، دار قتيبة، سوريا، ط1، 2011.

65- علي بوملح، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة، بيروت للطباعة و النشر، لبنان، دط، دس.

66- علي محمد علي سليمان، كتابات الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، المؤسسات العربية و النشر، البحرين، دط، 2010.

67- عمار طالبي، اصطلاحات الفلاسفة، المؤسسة الوطنية للكتابة، الجزائر، دط، 1983.

68- العياشي أدواري، الإستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2011.

69- فرانسوا أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987.

70- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، 2005.

71- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلة غوفمان، ترج: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر و التوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007.

72- قدور عبد الله الثاني، سميائية الصورة، (مغامرة سيميائية لأشهر الإرساليات البصرية في العالم)، ط1، 2008.

73-كاظم حطيط، دراسات في الأدب العربي البيئة العباسية الجاحظ، ابن الرومي و المتنبي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1977.

74- محمد أحمد أبو عبيد، براجماتية الكتابة العربية، دراسات في اللسانيات الإقتصادية، جامعة البلقاء التطبيقية، كلية اربد الجامعة، الأردن.

75- محمد بورطان، المصطلحات اللسانية و البلاغية و الأسلوبية و الشعرية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، دط، 2010.

76- محمد حسين أبو موسى، دلالات التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مراعاة المخاطب في النحو العربي، دار الكتاب العلمية، لبنان ، ط1، 2008.

77- محمد زكي الصبّاغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ، إشراف و مراجعة: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1998.

78- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

79- مصطفى السعداني،إستاطيقا الإشارة، دراسة بلاغية سميوطيقية، توزيع منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، 1994.

80- مصطفى فهمي، أمراض الكلام علم النفس، دار مصر للنشر ، مصر، ط5،دس.

81- محمد العمري البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999.

82- محمد العمري، الخطابة أصولها و امتداداتها، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، دط، 1999.

83- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، دس.

84- محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة و النشر، القاهرة، دط، دس.

85- محمد كرد علي، أمراء البيان، مكتبة الثقافة المصرية، القاهرة، ط1، 2012.

86- محمد محمد يونس علي، مذخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديدة، بنغازي، ليبيا، ط1، دس.

87- ميجان الرويلي و سعد اليازغي، دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من خميس تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي الأدبي، لبنان، ط2، 2000.

88- نعمان بوقرة، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب للطباعة و النشر و التوزيع،القاهرة، دط، 2004.

89- نواري مسعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ و الإجراءات، بيت الحكمة، العلمة، ط1، 2009.

90- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف أهم النظريات الحجاج في التقاليد الغربية،كلية الآداب، تونس، دط، دس.

91- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة و الشعر)، تحقيق: محمد البجاوي و محمد أبي الفضل ابراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 1986.

92- يونس محمد علي، مقدمة في علم الدلالة و التخاطب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، دس.

الرسائل الجامعية والأطاريح:

93- حسين بوبلوطة، الحجاج في الإمتاع و المؤانسة (أبي حيان التوحيدي)، مخطوط رسالة ماجستير في اللغة العربية، تخصص لسانيات الخطاب، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 201-2011.

94- راوية حباري، الوظائف التداولية في مسرحيات "أحمد رضا حوحو"، مخطوط رسالة ماجستير في الآداب و اللغة العربية، تخصص: اللسانيات و اللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014-2015.

95- بوكلخة صورية، المصطلح الإعلامي العربي، دراسة في اللسانيات التداولية، مخطوط رسالة ماجيستر، جامعة وهران، 2007-2008.

96- علي خفيف، شعرية الخطابة العربية،مخطوط أطروحة دكتوراه في تحليل الخطاب، جامعة باجي المختار، عنابة، 2007-2008.

97- عيسى حميداني، ظاهرة الأمراض اللغوية و علاقتها بعلم اللسانيات الأنتربولوجي،مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2010، 2011.

98- واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري، مخطوط أطروحة دكتوراه في اللسانيات، جامعة وهران، 2012،2011.

99- يحي بعطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، مخطوط أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الله بوخلخال، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006،2005.

المجلات و الدوريات:

100- مجلة المخبر، أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد: 7، 2011.

101- دراسات العلوم الإنسانية و الاجتماعية، المجلد:40، الجامعة الأردنية، العدد: 02، 2013.

102- مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد:1، 2001.

103- حوليات كليات الآداب، جامعة الكويت، الحولية:07، 1986.

104- علي محمد القاسمي، اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى.

105- مجلة دراسات في الترجمة و تحليل الخطاب، جامعة لغرور، خنشلة، العدد:1، 16 أفريل 2016.

106- مجلة الوصل، كلية الآداب، جامعة تلمسان، عدد:1، 1994.

107- منتدى الأساتذة، دورية أكاديمية محكمة تصدر عن المؤسسة العليا للأساتذة، قسنطينة، الجزائر، العدد:03، أفريل 2007.

108- مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد: 54، 1994.

119- مجلة المستقبل، العدد: 2029، الأحد 4 أيلول 2005، لبنان.

110- بحوث و دراسات، اسلامية المعرفة، العدد: 54، خريف 2008.

111- جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد: 2، 2008.

الفهرس

فهرس الموضوعات:

مقدمة:..(أ – ج)

مدخل:..(4 – 9)

الفصل الأول: أصول التداولية ومفهومها...(10 - 63)

المبحث الأول: المصطلح، والتداولية...(10 – 16)

1- المصطلح..(10- 12)

2- التدولية..(12 - 16)

المبحث الثاني: ملامح التداولية...(16 - 28)

1- التراث العربي ....(16 - 22)

2- التراث الغربي..(22 - 28)

المبحث الثالث: التداولية حديثا...(29 - 63)

أ- نشأة التداولية.. (29 - 32)

ب- مهام التداولية..(32 - 34)

ج- قضايا التداولية والمفاهيم.. (34 - 57)

د- علاقات التداولية.. (57 - 63)

الفصل الثاني: تجليات المصطلح التداولي في البيان والتبيين.........................(64 - 150)

المبحث الأول: قراءة في مدونة البيان والتبيين...(64- 80)

المبحث الثاني: المصطلحات التداولية في البيان والتبيين............................. (80 - 152)

1- وضائف البيان..(80 - 81)

2- صفات الخطيب..(82 - 83)

3- الصمت والإنصاف...(83 - 85)

4- اكتساب اللغة...(85 - 88)

5- مقتضى الحال... (88 - 97)

6- السياق والمقام... (97 - 102)

7- أنواع العلامة عند الجاحظ... ..(102 - 122)

8- الإقناع... (122 - 126)

9- الإيجاز... (126 - 128)

10- الخطابة... (128 - 131)

11- الفهم والإفهام... (131- 134)

12- اللغز في الجواب... (134 - 135)

13- الحبك والسّبك... (135 - 137)

14- الإبتداء... (137 - 138)

15- الحذف... (138 - 141)

16- البؤرة...(141)

17- الإطناب... (141 - 142)

18- الأفعال الكلامية...(142)

19- آفات البيان...(143 - 150)

الخاتمة... (151 - 153)

– **قائمة المصادر والمراجع**... (154 - 161)

– **فهرس الموضوعات**...(162 - 163)